

ليالي عاشوراء

السنة الثانية



الشيخ علي حسن غلوم



ليالي عاشوراء

بقلم الشيخ
علي حسن غلوم علي

محرم ١٤٤٠ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

هاتف: ٢٥٤٢٧٩٩٧ - ٢٥٤٢٧٦٦٧

فاكس: ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa66@yahoo.com



مطبعة مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

- المقدمة . بقلم د. سليمان الخضاري ٧
- ١ . لماذا خلق الله البشر؟ . القسم الأول ١٣
- ٢ . لماذا خلق الله البشر؟ . القسم الثاني ٢٥
- ٣ . عاشوراء والعاطفة . القسم الأول ٣٩
- ٤ . عاشوراء والعاطفة . القسم الثاني ٥٣
- ٥ . فاستخف قومه فأطاعوه ٩٧
- ٦ . الشهادة ١١٣
- ٧ . جولة في عقل شاب عنيف . القسم الأول ١٣١
- ٨ . جولة في عقل شاب عنيف . القسم الثاني ١٤٧
- ٩ . النصر من منظور حضاري ١٤٥
- ١٠ . ثأر الله ١٧٩
- ١١ . التوبة في مسار التصحيح ١٩٣
- ١٢ . التضحية خلق أصيل ٢٠٥
- ١٣ . مخاطر الاستعجال ٢٢١
- ١٤ . من ضوابط الإفتاء ٢٣٩
- ١٥ . عندما يصبح أبناؤنا ضحايا خلافاتنا ٢٥١
- ١٦ . أسباب النسيان ومخاطره ٢٦٥
- ١٧ . الأبعاد الفكرية والسياسية للصحيفة ٢٨٥



المقدمة

في البدء... كان الإعلام..

في البدء.. كانت زينب!

لك خياران في قراءة حادثة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أولاهما أن تقتنع بالرواية التي تعطي للحادثة بُعداً غيبياً أفصح عنه النبي الأعظم ﷺ قبل حدوثها بعقود، حيث تشير بعض الروايات لهذا المعنى وأن النبي الأعظم ﷺ قد أخبر أمته بأن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ سيتم قتله في أرض كربلاء، بل وأعطى زوجه أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حفنة من تراب، ومبيناً أنها ستتحوّل إلى دم «عبيط» يوم مقتل الحسين.. هذه رؤية لك أن تأخذ بها.. ولك أن تأخذ بنقيضها مما ينزع عن القصة معظم عناصر القداسة والإعجاز، وأن تراها في سياقٍ خلافٍ سياسيٍّ ارتأى خلالها الحسين أن ينتفض على السلطة القائمة لأسباب يرى مشروعيتها، وهو الأمر الذي انتهى كما في الروایتين باستشهاده مع رهط من أهل بيته وأصحابه في معركة كربلاء الشهيرة.



شخصياً، لا يعني أن تقتنع بهذه الرواية أو تلك، طالما
 أمعنت النظر في جملة من أمور قلّما يختلف عليها الباحثون،
 وأهمّها مركزية ثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وواقعة كربلاء في
 التاريخ الإسلامي ككل، وثباته على مبدئه الذي كان يؤمن
 به حتى الرّمق الأخير، رغم إدراكه أن معركته مع الجيش
 المقابل غير متكافئة على الإطلاق، وهو ما يبدو أنه كان
 مُدركاً له منذ بداية خروجه من المدينة المنورة، بدليل
 ما ينقله بعض الرواة من كتب متوالية أُنْتُه من الشام تعدّه
 وتمنّيه بتحقيق ما يريد شريطة مبايعته للخليفة الجديد
 وعدم خروجه عليه، والتحذير المباشر الذي تلقّاه في
 نصيحة ابن عباس له من أنه مقتول لا محالة، وما يتواتر
 أيضاً من ورود نبأ استشهاد سفيره للكوفة ابن عمه مسلم بن
 عقيل قبل وصول الحسين نفسه لأرض المعركة، وهي أمور
 كفيلة بتثبيط همّة الكثيرين عن الاستمرار فيما هم مقدمون
 عليه في ضوء المعطيات الواضحة أمامه من حتمية الخسارة
 بالمعنى المادي للمواجهة مع معسكر خصومه!

دع عنك هذا الجانب من قصة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعال



معي في جولة في الكثير من الثورات التي من المفترض أنها تتشابه مع ثورة الحسين، كثورة حفيده زيد، وأحفاد الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام كمحمد ذي النفس الزكية، وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن المثنى، والكثير من التحركات الشبيهة ولو شكلاً بواقعة كربلاء، ولنتساءل مع بعضنا عن أسباب طغيان واقعة كربلاء وحضورها في الوعي الشعبي والضمير الجمعي للأمة الإسلامية، بينما لا تجد للكثير من تلك الثورات ما يقارب واقعة كربلاء زخماً ولو من بعيد.

لتأكيد خصوصية كربلاء، قد يسوق البعض عظمة شخصية الإمام الحسين ونبل أهدافه كسبب رئيس لحيوية ثورته، وهو مما لا يجادل فيه إلا جاحد، لكن الإنصاف يجبرنا على أن ننسب الكثير من الصفات النبيلة لغيره من أصحاب الثورات ضد الظلم والتي لم يتم تسجيلها في صفحات التاريخ بنفس الحجم والاهتمام الذي نال قضية كربلاء وعاشوراء الحسين... فما هو السرّ في هذه الخصوصية وهذا الامتداد الزمني وهذه الحيوية؟

إنها زينب يا سادة!



نعم أيها الأحبة، فأنا هنا أدّعي أنه لو لم تكن زينب شاهدة على واقعة كربلاء، ولو لم تقم بالدور الذي رسمه لها أخوها الحسين - كما يبدو من إصراره على اصطحابها معه من المدينة - لما كان لقضية كربلاء نفس الحجم من التأثير السياسي والتاريخي، ولما وصلت لنا القضية واستمرت بمثل سخونتها في نفوس الكثيرين حتى لحظة كتابة هذه السطور وإلى أن يشاء الله! لقد كانت زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ هي المتحدث الرسمي والإعلامي باسم فاجعة الطف، وقامت بدورها على أكمل وجه، فنقلت لنا القصة كما حصلت، وواجهت رموز الظلم في زمنها ومَن قاموا بقتل الإمام الحسين، ومحاولة تشويه أهداف ثورته، ونَعَتِ تحرّكه بأوصاف سياسية دنيوية لا تتناسب مع واقع ما قام به الإمام عَلَيْهَا السَّلَامُ، كما وأوضحت مقاصده من تحرّكه ونبل أهدافه، ودفعَت عن تحرّكه أي شائنة قد تحاول السلطات استخدامها لإدانته، كل ذلك وفق منهج منطقي وحجة سليمة لا تعوزها بلاغة اللغة جمال التعبير، فهي في النهاية، ابنة علي عَلَيْهَا السَّلَامُ!

من زينب نبداً، وإليها ننتهي في موضوع هذه المقدمة



التي تفضّل عليّ أخي وأستاذي الشيخ علي حسن غلوم بطلب كتابتها لإصداره القيمّ هذا، والذي أرى نفسي دون هذا المقام بكثير، فلقد أثارني في الفترة السابقة عزوف الكثير من الشباب عن حضور مجالس الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتنامي ظواهر الإلحاد واللا أدوية وغيرها، والتي أعلم تماماً أن بعضاً منها إنما هو نتاج حالة الانفجار المعلوماتي الهائل وتوافر المعلومات بشكل سهل وسطحي أحياناً، بالإضافة إلى تنامي الحسّ العقلاني لدى شبابنا، مع ما يتّبعه ذلك من امتلاك الكثير منهم لأدوات النقد التي بدءوا يطبّقون الكثير منها على ما يتمّ ترديده في بعض المجالس الحسينية، والتي يجب ألا نغفيتها من مسؤولية الابتعاد بالمنبر الحسيني عن قيم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بنشرها أحياناً للكثير من الأخبار غير الموثوقة، وتقديم البعض منها لخطاب سطحي ما عاد يناسب الجيل الحالي من الشباب.

في ظل هذا كله، يفاجئني الصديق العم حيدر غضنفری بدعوته لحضور مجالس عزاء عاشوراء لهذا العام في ديوانه العامر، والتي كانت من تقديم سماحة الشيخ علي حسن،



فكانت سعادتي لا توصف بوقوعي على هذا الكنز المعرفي المتمثلّ بسماحته، بالإضافة لاستيعابه العميق لدور الإعلام في تقديم قضية الإمام الحسين بالشكل الذي يليق بها، وهو ما لا أخاله قد قام به إلا وهو مستوعب تماماً للرسالة الإعلامية للسيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ ومحاوريتها في إبقاء جذوة الحسين وحرارة ثورته مستعرة عبر العصور.

إن شبابنا طيّب، وفيه من الخير الكثير، وهو مؤمن بطبيعته رغم ما قد يعتريه من شك أو نقد قد يقسو أحياناً تجاه الدين وأهله، ولا أجد أفضل من الشيخ علي حسن غلوم وأمثاله بأن يكونوا جديرين بالتصدي لهذه المرحلة الحساسة من تاريخ هذه الأمة، وهي مرحلة تحتاج إلى خطاب إعلامي يناسب عقول شبابها ولا يخاصمهم، بل ويمدّ لهم يد الرحمة والإشفاق، محاولاً العودة بهم لما تُمليه عليهم فطرتهم.

ولنتذكر دائماً.. أنه لولا إعلام زينب وخطابها الحضاري، لما كانت ثورة الحسين هي ما نعرفه الآن!

د. سليمان إبراهيم الخضاري

الكويت : أكتوبر ٢٠١٨



لماذا خلق الله الشر؟ - القسم الأول



﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً
وَالَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١) ... الشر قد يكون:

١- طبيعياً، كالبراكين والزلازل والعواصف والطوفان
والهدّات الأرضية والأوبئة والحيوانات المفترسة والفيروسات
والتصحّر وأمثال ذلك.

(١) سورة الأنبياء: ٣٥.

٢. من صنع الإنسان، كالحروب والجرائم والتمييز العنصري والتعذيب والظلم والاعتداء الجسدي واللفظي وأمثال ذلك.

والإشكال الفلسفي الفكري القديم المتجدد الذي يطرح بهذا الخصوص، وأعاد الملحدون والمتأثرون بهم طرحه بقوة مؤخراً يتلخص في التالي: إذا كان الله الرحمن الرحيم من جهة، والقدير على كل شيء من جهة أخرى، موجوداً، فكيف يسمح بإيجاد أو خلق أو حصول هذه الشرور؟

فبما أن الرحمة من صفاته اللازمة، فمن المفترض أن لا تسمح رحمته بأن يتعذب طفل أو يحترق إنسان أو تتوالى المصائب على رأس الفقير المستضعف، وغير ذلك من الحالات التي يقع فيها الشر.

وإذا كان على كل شيء قدير، فلم يخلق ويسمح لمسببات الشر أن توجد أو تحدث؟

ومن الواضح أن ما جرى في كربلاء في العاشر من المحرم من سنة ٦١ هـ يمثل نموذجاً جلياً لبروز مثل هذا التساؤل حول كيفية التوفيق بين وجود الشر ووجود الإله



الرحيم القدير.. كيف يسمح الله بأن يُقتل أناس هم من
خيرة البشر، ومن الذين نذروا حياتهم لعبادته وخدمته،
وبهذه الصورة البشعة والإجرامية وعلى يد أرذل الناس؟

كيف يسمح الله بأن تُقطع الأجساد ويُمثل فيها أمام
النساء والأطفال في مشهد بشع ما زالت الأجيال تذكره
وتتألم له؟

كيف يسمح الله بأن يُقتل طفل رضيع وهو في المهد بعد
أن يكابد العطش والجوع، ولا ذنب له سوى أنه ابن الحسين؟
وأن يتم ذلك بأبشع صورة وهو في حضن أبيه فيُذبح بسهم
من الوريد إلى الوريد.

كيف يسمح الله بأن تُسبى نساء عفيفات هنّ بنات نبيّه
ورسوله، الذي نذر حياته للرسالة، وقدم كل شيء لخدمتها،
أما كان يستحق أن يُكرم في بناته على الأقل بأن يمنع
التعرض لهن بسوء من قبل الأوباش؟

إنّ هذا يدل - بحسب إشكال الملحدين - على عدم وجود
الإله... أو عدم وجود صفات الرحمة المطلقة والقدرة
المطلق في هذا الإله.

• عرض الإشكال بأسلوب المناطقة:

يقال أن أول من طرح مشكلة الشر وبأسلوب القياس المنطقي هو الفيلسوف الإغريقي إبيقور^(١)، ويمكن وصف قياسه كالتالي:

إذا كان يوجد إلهٌ كامل القدرة والمعرفة والخير بالعالم،
إذاً لن يوجد الشر. وبما أن الشر موجود في العالم. إذاً، لا
يوجد إله كامل القدرة والمعرفة والخير في الآن ذاته.

من الواضح للمتمعّن قليلاً في الاستدلال السابق وجود
خلل في المقدمة.. فعلى أي أساس سلّمنا بأنه: إذا كان يوجد
إلهٌ كامل القدرة والمعرفة والخير بالعالم، إذاً لن يوجد
الشر.

(١) إبيقور Epicurus فيلسوف يوناني عاش بين عامي «٣٤١-٢٧٠ ق.م»، وأسس لمدرسة فلسفية سميت باسمه هي المدرسة الإبيقورية. قام بكتابة حوالي ثلاثمائة منجز لم يصلنا منهم إلا بعض الأجزاء والرسائل المستمدة من التابعين لمدرسته وبعض المؤرخين. تتلخّص تعاليم مدرسته في ثمانية عناوين أساسية: لا تخف من الآلهة، لا تخف من الموت، لا تخف من الألم، عش ببساطة، ابحث عن المتعة بحكمة، اعقد صداقات وابتعد عن أصدقاء وكن حسن المعاملة لأصدقائك، كن مخلصاً في حياتك وعملك، ابتعد عن الشهرة والطموح السياسي.



ولذا أجرى بعض الفلاسفة تعديلاتٍ وتطويراتٍ على هذه الحاجة فيما بعد، لتثبت أن المقدمة الأولى صحيحة ومنطقية ويمكن البناء عليها، ومن ذلك الاستدلال التالي:

١. الإله موجود.

٢. الإله كامل القدرة والمعرفة والخير.

٣. يريد أي كائنٍ كامل الخير أن يستأصل الشر.

٤. يعلم أي كائنٍ كامل المعرفة كل طريقة يمكن أن يوجد فيها الشر بالعالم، ويعلم كل طريقة يمكن أن يُستأصل بها هذا الشر.

٥. يستطيع أي كائنٍ كامل القدرة أن يستأصل الشر.

٦. سيمنع وجود الشر في العالم أي كائنٍ يعرف كل طريقةٍ يمكن أن يوجد فيها الشر، وقادر على استئصال هذا الشر من الوجود، وراغب في استئصاله.

٧. إذا كان يوجد إله كامل القدرة والمعرفة والخير، فإنَّ الشر لن يكون موجوداً.

٨. ولكن الشر موجود.

٩. النتيجة: لا يوجد إله الإله كامل القدرة والمعرفة والخير. أو لا يوجد إله أصلاً.

• أهمية الموضوع:

هذا الإشكال بشكل عام انشغل به العلماء والفلاسفة، قبل الإسلام بقرون، وأُلف فيه ما أُلِف، وما زال يُحدث هزّة أو ردّة إيمانية عند البعض خاصة إذا عانوا في الحياة من بعض هذه الشرور.

ونتيجة لذلك، فقد تأسّس علم تبرير العدالة الإلهية، أو الشيوديسيا^(١)، كما ارتبط هذا الإشكال بنظرية العدالة الإلهية كلما عرضه المتكلمون والفلاسفة وعلماء الدين. وهكذا تُبحث «معضلة الشر» أو «مسألة وجود الشر» كفرع محدّد من علوم الأديان كما تُبحث في الفلسفة أيضاً. وهذه البحوث والدراسات تسعى لكي توفّق ما بين الإيمان بوجود الإله الرحمن الرحيم القدير، وفي نفس الوقت وجود الشر.

(١) Theodicy يتكوّن هذا المصطلح من كلمتين لاتينيتين Theo وتعني الإله، Dike وتعني الحكم على شيء أو محاكمته، ومعنى الكلمتين معاً: تبرير الفعل الإلهي.

• ثلاث فرضيات محورية :

مما سبق يتضح أن الإشكال إنما يقوم على افتراض ثلاثة أمور:

١. الإله كلي القدرة

٢. الإله كلي الرحمة

٣. الشر موجود

وانتفاء أي واحدة من تلك الفرضيات سيعني انتفاء الإشكال، وهذا ما سعى إليه بعض الفلاسفة وأرباب بعض الأديان القديمة.

• المحاولة الزرادشتية :

فالزرادشتية^(١) مثلاً حاولت حل المعضلة عن طريق تقسيم الوجود الإلهي إلى قسمين، إله للخير وإله للشر. الأسطورة الزرادشتية تحكي لنا أن إله الخير «أهورامزدا»

(١) الزرادشتية وتعرف بالمجوسية هي ديانة ظهرت في بلاد فارس، وكانت الدين الرسمي للإمبراطوريات الأخمينية والبارثية والساسانية. نسبت الديانة إلى مؤسسها زرادشت.

في عالمه المتعالي، مصدر للنور والصفاء، فهو قوّة العقل الكامل، يعلم بعلمه المطلق الشرّ والظلمة، وبعقله الكامل يعلم وجود «أهريمن» إله الشر الذي كان في الظلمة المطلقة، والذي لم يكن يعلم بوجود «أهورامزدا»، ولم يكن قادراً على اختراق الفضاء الفاصل ما بين الظلمة والنور.. فهو يحيا على حدود عالم النور. ثم إنّ إله الشر «أهريمن» قد سُمح له فجأة بعبور عالم الظلمة دون سبب واضح، وحينما صدمه هول ما رآه في عالم النور، ولم يكن على علم بوجوده، قرّر أن يُدنّس عالم النور، ويُنهي الخلود. وكان «أهورامزدا» يعلم بتجول «أهريمن» في عالمه النوراني المطلق، ورغم قدرته على إفنائه إلا أنه لم يقم بذلك، بل اتّفق معه على موعد لبداية المعركة بين العالمين، الخير والشر، الحياة والموت، وحدّدها بأنّها ستكون بعد ثلاثة آلاف عام. وفي تلك الأثناء خلق «أهورامزدا» كلّ خلقه، بدايةً بالسماء والأرض، وصولاً للعشب والنار ونهايةً بآخر مخلوقاته وهم البشر، وظلّ الجميع في حالة سكون، إلى أن انقضت المهلة وأعلنت الحرب ضد «أهريمن» وأعوانه، فتحرّكت المخلوقات.



وفي المقابل فقد خلق «أهريمن» المخلوقات الشريرة، في محاولة منه أن يأخذ النور الإلهي الكامن في المخلوقات، أي يأسر الحياة ويهبط بها إلى العالم السفلي. ونتيجة لخطف النور الإلهي ستصيب المخلوقات الأمراض، فيخلق لها «أهورامزدا» الدواء، ثم يُصيب الإنسان العجز والهرم فيعوّضه الإله بأبناء حتى تستمر الحياة، وهكذا دواليك... وقد أعطاه إله الخير مدة ٩٠٠٠ عام كفرصة ليتواجه ويتنافس ويتصارعا فيها، وقد كان إله الشر مطمئناً للفوز بالألوهية المطلقة، إلا أن ظهور زردشت ونشره الدين الجديد والخير جعل الناس تنفر من إله الشر، مما أدى إلى هزيمته. وسيبقى إله الخير يحكم الكون في نهاية المطاف، فنهاية العالم ستكون إلهية وليست شيطانية، لذا يجب إطاعة أوامره وتوحيده وأنه لا شريك له في الملك.

• محاولة الفلسفة اليونانية :

كانت هذه واحدة من المحاولات القديمة لتفسير وجود الشر مع الإيمان بوجود الإله القدير الرحيم، والمحاولة الأخرى جاءت من قبل بعض فلاسفة اليونان وأخذها عنهم

بعض الفلاسفة المسلمين حيث قالوا بانتفاء الفرضية الثالثة، أي وجود الشر.

فالشر، في التحليل العقلي، يعود جميعاً إلى العدم المحض، أو ما يفضي إلى العدم.. فالمرض شر، ولكنه في حقيقته عدم الصحة، والموت شر، وهو في حقيقته عدم الحياة، والفقر شر، وهو في حقيقته عدم المال.

ومن المعلوم أن الله عَزَّوَجَلَّ خالق الموجودات لا الأعدام التي تعرّض على الموجودات بالملازمة وبالعَرَض. فيمكن القول بأن عالم الوجود خيرٌ محض، والشر هو العدم. وما قيل من وجود إلهين: إله الخير وإله الشر إنما هو لتوهم أن الشرور موجودات ولا بد لها من موجد لها، والحال أن الإله لم يخلق الشر لأنه لم يخلق العدم.

وقد وردت عدة إشكالات على هذه المحاولة الفلسفية، ومن بينها أن البراكين والزلازل والأفاعي السامة والوحوش الكاسرة شرور، وهي ليست عدماً، بل موجودات حقيقية.

ومن بينها أنه كما يصح أن نقول أن المرض هو عدم الصحة، والفقر هو عدم الغنى، فكذلك يصح أن نقول:

إن الصحة هي عدم المرض، والغنى هو عدم الفقر.
فالصحة والمرض كلاهما أمران وجوديان وحالتان من
حالات الجسم.

• المحاولة اليهودية :

حاولت بعض المدارس اليهودية أن تتخلص من الإشكال
بنفي الفرضية الأولى والقاضية بأن الإله كلي القدرة، وذلك
بتقديم صورة عن الإله الخالق مغايرة لما هي عليه في
الدين الإسلامي على الأقل، فهو إله لا يمتلك تلك القدرات
والإحاطة والقوة والعلم، ولذا فهو عاجز عن التدخل لمنع
الشر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا
بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(١).

• المحاولة الوثنية :

وسبقتها إلى ذلك الأديان الوثنية المؤمنة بأن الله هو
الخالق، إلا أنه فوّض إدارة شئون الخلق إلى آلهة متصارعة
ذات غايات ومصالح متضاربة، هي في جانب من صفاتها

أقرب للبشر منها للإله، ولذا فهي تخلق الشر أو يصدر عنها خدمة لمصالحها، أو في طريق تنفيذ غاياتها.

ولا نريد أن نستغرق كثيراً في بيان وردّ ما جاء في تلك النظريات والفلسفات.. ولكننا نتساءل ما هو الجواب الذي يمكننا نحن أن نقدمه نحن لحل هذه المعضلة؟

كيف نوفّق بين وجود الشرور بأنواعها في العالم وبين الإيمان بوجود الله الرحمن الرحيم الذي هو على كل شيء قدير؟ وكيف نوفّق بين وجود الله وبين الجرائم التي ارتكبت بحق بعض من أحبّ الناس إليه، كما جرى يوم الطفّ بكرىلاء؟

هذا ما سنعرفه في المحاضرة التالية بإذن الله عزّ وجلّ.





لماذا خلق الله الشر؟ - القسم الثاني



﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً
وَالَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

القرآن الكريم في الوقت الذي يبني كل عقيدة المسلم على التوحيد، يقرّ في ذات الوقت بوجود الشر، ولا ينحو منحى بعض التفسيرات الفلسفية القائلة بعدم وجود الشر.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ
لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١).

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ
فَيَوُوسُّ قَنُوطٌ﴾^(٢).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٣).

إذ يمكن القول بحسب ظاهر الآيات أنها تُخبر وتقر
بوجود الشر، كما أنه يبني القرآن الكريم عقيدة المسلمين
على أساس التوحيد: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٤) رافضاً
التفسير الزرادشتي والوثني لوجود الشر، مؤكداً في الوقت
ذاته صفات الله وعلى أنه على كل شيء قدير، ومعرضاً
بإدعاء اليهود أن يد الله مغلولة: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي

(١) سورة يونس: ١١.

(٢) سورة فصلت: ٤٩.

(٣) سورة فصلت: ٥١.

(٤) سورة آل عمران: ٦٢.



لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ
الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(١).

ما كتب وقيل في الدائرة الإسلامية في الرد على الإشكال
- قديماً وحديثاً - متعدد الأساليب والاتجاهات، وسأحاول
طرح البعض من ذلك. والإجابات التالية بعضها قد يناسب
الإشكال ككل، وبعضها يمثل رداً على حالات خاصة منها:

• محورية الاختيار؛

الاختيار عمدة حركة الإنسان في الحياة. فنظام وجود
الإنسان مبني على الاختيار في كثير من الجوانب^(٢)، وإذا
افترضنا التدخل الإلهي في كل جريمة سترتكب لمنعها، وفي
كل مورد من موارد الشر الصادر عن الناس تجاه بعضهم
البعض، فهذا يعني نقض هذا النظام والتعارض مع غايته.

(١) سورة الحشر: ٢٢-٢٤.

(٢) الإنسان غير مختار في بعض الأمور من قبيل الزمن الذي يولد فيه
وتحديد أبويه ومكوناته الجسدية ... إلخ.

فعدد سكان الكرة الأرضية حالياً تجاوز ٧ مليارات و٦٠٠ مليون إنسان، ولو تنزّلنا كثيراً وافترضنا أن ما يصدر عن مجموعهم من أنواع الشرور، كالقتل والاعتداء الجسدي واللفظي ... إلخ يبلغ مليون حالة في اليوم الواحد - وهو أقل بقليل من الرقم الحقيقي - فهذا يعني التداخل الإلهي في مليون حالة يومياً لمنع وقوع تلك الشرور الصادرة عن البشر.. فهل سيكون للاختيار معنى بعد ذلك؟ وهل يمكننا أن نقول أن الإنسان مختار في حركته في الحياة؟

وإذا افترضنا أن الله عَزَّوَجَلَّ يتدخل في منع بعض الحالات فقط، فهذا يعني أن تدخله قائم على الانتقائية، والانتقائية ظلم بحق من لم يتدخل من أجلهم.

وإذا قلنا أنه ينتقي على وفق معايير معينة كالأشد ضرراً، فسيرد الإشكال حول تحديد الشدة واختلاف قدرات الناس في تحملها، فربما كان الأمر البسيط بالنسبة للبعض شديد الألم بالنسبة إلى الآخرين، ولربما يكون الضرر الواقع على الفرد غير شديد، إلا أنه يلحق بالمجتمع ضرراً شديداً بلحاظ بعض الجوانب، أو بلحاظ تبعات ذلك الفعل الشرير.



وللفيلسوف الأمريكي «ألين كارل بلانتينغا»^(١) رأي موافق في هذا المجال، حيث اعتبر أن الأفعال الشريرة أخلاقياً في المجتمع الإنساني ناتجةً دوماً عن ما يفعله البشر بإرادتهم الحرّة، وبالتالي فإنّ إيقاف هذا الشر يتطلب سلب الناس حرية إرادتهم.

إلا أن تفسيره لوجود الشرّ من جهة أخرى يأخذ منحىً غريباً عندما يحاول الإجابة على علة وجود الشر التكويني الطبيعي، حيث يعتبر أن هناك احتمالاً منطقياً بوجود روح شريرة قويّة مثل الشيطان، تكون هي المسؤولة عن الشرور الطبيعية في العالم، كالزلازل وثورات البراكين والأوبئة!

وهو بهذا يقترب إلى حدٍّ ما من الثنوية الزرادشتية التي عرضنا جانباً منها بالأمس، وإن اختلف من جهة أنه لا يقول بالوهية الشيطان، ولكنه يتفق معها - ولو على مستوى

(١) ولد في ١٩٣٢. أستاذ فخري للفلسفة في جامعة نوتردام. متخصص في فلسفة الدين ونظرية المعرفة والميتافيزيقا. ويعتبر على نطاق واسع أهم فيلسوف مسيحي في العالم على قيد الحياة. وصفته مجلة تايم الأمريكية بأنه: «فيلسوف الله الأرثوذكسي البروتستانتي القيادي لأمريكا». ألف العديد من الكتب بما في ذلك الله والعقول الأخرى، طبيعة الضرورة، وثلاثة كتب عن نظرية المعرفة.



الاحتمال المنطقي - بأنه هو مصدر الشرور التكوينية.

وقد يقول البعض بأن في القرآن الكريم ما يؤيد هذا القول أيضاً، وذلك من قبيل نسبة أيوب عَلَيْهِ السَّلَام ما أصابه من مرض وفقر وموت أبنائه للشيطان، وذلك في قوله المحكي عنه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(١). وفي تشبيهه حال آكل الربا بالذي أصابه الجنون - وهو حالة مرضية عقلية أو نفسية - بسبب الشيطان: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٢).

إلا أن الآيات يمكن تفسيرها بصورة مجازية لا تستدعي نسبة هذه الأحداث - كالمرض والفقر - إلى شيطان الجن، على اعتبار أن الآية من جهة لم تستعمل كلمة «إبليس» بل «الشيطان» والفرق بينهما واضح، ومن جهة أخرى لأن العلم وصل اليوم إلى نتائج تؤكد أن الخلل فسيولوجي أو نفسي في مثل الجنون، فالشيطان في الآيات رمز للشرور، لا أن إبليس

(١) سورة ص: ٤١.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.



هو صانعها وموجدها.. فقد يكون الشيطان فيروساً، أو بكتيريا ضارة، أو شيطان من الإنس يوسوس ويثير الفتن... وهذا ما نفهمه - مثلاً - من المروي عن النبي ﷺ: (لا تبيتوا القامة في بيوتكم وأخرجوها نهاراً فإنها مقعد الشيطان)^(١)، وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (لا تؤوا التراب خلف الباب فإنه مأوى الشياطين)^(٢)، وكأنها إشارة إلى الميكروبات والفيروسات الضارة بالصحة.

وخلاصة ما سبق، أن التدخل الإلهي لمنع الشرور الصادرة عن الإنسان يعني إلغاء حرية الاختيار، وهو - بذا - يُفقد معنى الحياة. ومن الواضح أن هذا الرد ليس شاملاً، لأنه يخص نوعاً من الشرور فقط، وهي الشرور الصادرة عن الإنسان، ولا يعم حالة الشرور الطبيعية.

• صفحة من كتاب ضخم:

إذا أردنا أن نردّ على الإشكال في حالة ما لو كان موجّهاً من قبل من يؤمن بوجود الآخرة، فينبغي أن نذكره أولاً أن

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٦٦٦٣.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٦٦٦٢.

هذه الحياة ليست خاتمة المطاف لوجود الإنسان، بل هي بمثابة صفحة في كتاب ضخم مكوّن مما لا يُحصى من الصفحات يمثّل حياته كلها.

فإذا مات الطفل بصورة مفاجئة مثلاً، فقد انطوت هذه الصفحة المختصرة، وتنتظره حياة سعيدة في جنة الله. وإذا وُلد الإنسان بإعاقة وصبر عليها، كان لهذا الصبر عطاءً يغبطه عليه الآخرون يوم القيامة، وإذا أصيب بمرض مثلاً فصبر، كان لذلك تأثير إيجابي على آخرته.

قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

عن النبي الأكرم ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ). يريدُ عَيْنِيهِ^(٢).

وعنه ﷺ: (مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)^(٣).

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

(٢) صحيح البخاري، ح ٥٣٢٩.

(٣) سنن الترمذي، ح ٢٣٩٩.



وعنه عليه السلام: (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا) ^(١).

وعنه عليه السلام: (إِذَا مَرَضَ الْمُسْلِمُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِأَحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صَحَّتِهِ، وَتَسَاقَطَتْ ذُنُوبُهُ كَمَا تَسَاقَطُ وَرَقُ الشَّجَرِ) ^(٢).

وخلاصة الفكرة أن رحمة الله لا تتجلى في الدنيا فقط. وهذه الإجابة أيضاً ليست عامة، بل تخص المؤمنين بالآخرة وبثواب الله وعقابه فيها، ولا يستقيم تقديمها لمن لا يؤمنون بتلك الدار.

• تَزَاحُمٌ وَتَدَافُعٌ:

لابد أن أدرك بوضوح أنني لست لوحدي في هذه الحياة، بل هناك منظومة متكاملة من المخلوقات تشاركني هذه الحياة وتتزاحم معي وفيما بينها، وكلُّ منها يحتاج إلى نوع من الغذاء، ووسيلة دفاع عن النفس وما إلى ذلك.

وما أعتبره أنا شراً بالنسبة لي، كسمِّ الأفعى، هو خير

(١) صحيح البخاري، ح ٥٣١٧.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٤٦٨.

بالنسبة إليها لتضمن بقاءها.. بل لو وضعت نفسي مكان هذه الأفعى لربما قلت: لماذا خلق الله الإنسان القوي بهذا العقل الجبار؟

أي أن النظرة الأحادية الجانب التي ننظر بها إلى الأمور تدفع إلى طرح مثل هذا الإشكال، بينما لو نظرنا إلى الصورة الكلية لتفهّمنا المسألة بشكل أوضح ولزال عنا هذا الوهم. وهذه الإجابة عامة ولا تخصّ المؤمنين بالآخرة، كما لا تخصّ الشرور الصادرة عن الناس.

• مزيج من الخير والشر:

إجابة عامة أخرى.. فما اعتبره شراً ليس شراً خالصاً، بل فيه خير، وهذا الخير لربما يكون أضعافاً مضاعفة قياساً إلى الشر المتحقق.

فالزلازل والبراكين - مثلاً - هي شرور بالنسبة إلى مَنْ عانوا منها، ولكنها بالنسبة إلى مليارات البشر، بل ولبقاء الحياة ككل على الأرض، بل واستمرار وجود الكرة الأرضية أمرٌ حاسم، لأنها متنفس الكرة الأرضية، إذ أن باطن الأرض



مليء بالغازات والأبخرة والمواد الأخرى المنصهرة التي تخرج إلى سطحها بين الحين والآخر عن طريق البراكين وما تصحبها من زلازل.

١. يقرر أهل الاختصاص أنّ اندفاع المواد البركانيّة يؤديّ إلى التأثير بشكل مباشر في سطح الأرض، وذلك لأنّ القشرة الأرضيّة لا تتحمّل درجة حرارة المواد البركانيّة المرتفعة، مما يؤديّ إلى تفتّتها، وتغيير الغطاء السطحيّ المكوّن لها.

٢. تساعد البراكين في القضاء على بعض أنواع البكتيريا، وخصوصاً المُنتجة لغاز الميثان.

٣. البراكين تُطلق غاز ثاني أكسيد الكبريت الذي يساعد على تبريد جوّ الكرة الأرضيّة بشكل غير مباشر.

٤. تُجدّد البراكين القشرة الأرضيّة عن طريق المواد المنصهرة، والتي تتكوّن من: الأكسجين، والسليكون، والألمنيوم، والحديد، والكالسيوم، والعديد من المركّبات الكيميائيّة الأخرى، وهذا الأمر يساهم في زيادة خصوبة التربة.

ثم إن المصاعب والشرور التي يعاني منها الإنسان تجعله أصلب عوداً، وهذا ما قرّره أمير المؤمنين علي عليه السلام في قوله: (أَلَا إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرُّوَاعِ الْخَضِرَةُ^(١) أَرْقُ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعَذِيَّةُ^(٢) أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً^(٣)) ففائدتها أكبر. بل وتدفع الإنسان إلى الإبداع والتطوير من أجل مواجهتها مستقبلاً والتغلب عليها. ولو أخذنا مفردة المرض كمثال على الشر، فإنه يدفع إلى اختراع الأدوية، ووسائل الوقاية، وتطوير الجوانب الصحية الحياتية.. إلخ.

• مبالغات:

الوجود ليس شراً محضاً، بل الشر لا يمثل في حياتنا إلا شيئاً بسيطاً منها.. ولكن الإنسان بطبيعته: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾^(٤)... ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾^(٥). فلم التغافل عن أصناف الخير التي يتنعم فيها

(١) المدللة بتوافر الماء والغذاء.

(٢) المعتمدة على المطر فقط.

(٣) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

(٤) سورة الإسراء: ٨٣.

(٥) سورة المعارج: ١٩-٢٠.



الإنسان على مدى عقود من حياته، والتركيز على بعض الشرور التي تُعتبر حالات استثنائية في حياة الفرد؟

• أنا السبب:

ثم إنَّ من الشرور ما يكون نتاج كسب الإنسان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، فلماذا يحمل الله تبعات ذلك؟

فإذا تلاعب في النظام البيئي مثلاً بشكل مسرف، فإن الخلل الناتج سيصيبه بالشر.. ومثال ذلك مسألة الانبعاث الحراري وتبعاته على مستوى الكرة الأرضية. وإذا سكت الإنسان عن الظالم وأعانه، ارتدَّ الظلم على الناس، وشمله هو ولو بعد حين: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

• خاتمة:

إن وجود الشر - بأنواعه - في الحياة لا يتنافى والإيمان

(١) سورة الأنفال: ٥٢.

(٢) سورة الروم: ٤١.

بوجود الله الرحمن الرحيم الذي لا غالب له وهو على كل شيء قدير، وعلى الإنسان أن يقرأ كتاب الحياة في آفاقه المتعددة وتنوعاته الكثيرة، لا أن يستغرق - بنظرة أحادية قاصرة - في سطرٍ من كتاب الوجود، وينسى كلَّ الصور الجميلة ثم يتغافل بعد ذلك عن الحياة الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وخيرٍ محض متى ما قدَّم لها ما تتطلبه من ثمن على مستوى الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

إن استشهاد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنصاره وسبي أهل بيته وما تعرَّضوا له من شدائد خلال ذلك ليس شرّاً محضاً، إلا عند من يقرأ التاريخ والأحداث بعين واحدة، وأما مَنْ يعرف سُنَنَ الله في حركة التاريخ، ومآلات الوجود، وآمن بالمعاد كما آمن بالمبدأ، فإنه سيدرك أن ما جرى في يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة حمل في طيَّاته الكثير من الخير لهذه الأمة، والذي ما كانت لتتأله لولا تلك الدماء الزكية التي أريقَتْ ظُلماً على أرض الطف، وتلك الدموع المسكوبة والأحزان العميقة والآهات والزفَّرات التي ملأت أرجاءه.



عاشوراء والعاطفة - القسم الأول



﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو
بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

من معاني العطف في اللغة: الإمالة، وأن تجعل الشيء



منحنياً.. وعطف الأم على ولدها يكون بميلها عليه لتفيض عليه مشاعر الأمومة، أو لتحميمه.

• بين الانفعال والعاطفة :

لا بد من أن نفرّق في البدء ما بين الانفعال Emotion والعاطفة Sentiment.

الانفعال، بحسب علم النفس، حالة وجدانية عابرة تأتي الفرد بصورة مفاجئة، وتصحبها اضطرابات فسيولوجية وتعبيرات حركية.

فعندما تتفاجأ بوجود حيوان مفترس - كالأسد مثلاً - أمامك، فمن الطبيعي أن تخاف، وخوفك هذا حالة طارئة يصحبها شحوب في الوجه، وتسارع في دقات القلب، ولربما ارتعاد في الفرائص، وميل بالجسد إلى الوراء وغير ذلك.. وبعد زوال الخطر، يبدأ الوضع النفسي والفسيولوجي بالعودة إلى حالته الطبيعية، حيث أن تلك التغيرات كانت مؤقتة. نعم، قد يستغرق الأمر بعض الوقت بحسب شدة المؤثر والظروف المحيطة بك، ولكن الأمر لن يدوم.. ولذا نقول أن الخوف انفعال.



وهكذا عندما تقود سيارتك في الطريق ثم تتفاجأ بمن يكاد أن يصطدم بك لرعونته، فإنك تغضب، وغضبك هذا يظهر على تعابير وجهك الذي يحمرّ، ولربما تجحظ عيناك، وتبدأ بالصراخ، وتحرك يدك بصورة إيحائية، وغير ذلك.. وبعد انتهاء الأمر تبدأ حالتك النفسية بالعودة التدريجية إلى سابق عهدها.. ومن هنا نقول أن الغضب انفعال.

أما العاطفة فعبارة عن استعداد وجداني مركب وتنظيم مكتسب لبعض الانفعالات الموجهة نحو موقف معين، تدفع صاحبها للقيام بسلوك خاص. وقد يستمر هذا الاستعداد النفسي إلى أمد طويل جداً.

فعندما يُعجّب الرجل بجمال امرأة «انفعال»، ثم يرتاح للجلوس إليها «انفعال»، ثم يُعجب بكلامها ومنطقها «انفعال»، ثم يشاقق إليها إذا غابت «انفعال»، ثم يُعجّب بطريقة تفكيرها ومهاراتها «انفعال»، فإن تراكم هذه الانفعالات الآتية وتكرّرها قد ينتج عنه الحب.. ولذا نقول أنّ الحب عاطفة.

وهكذا عندما تشاهد بعض صور لمجازر ارتكبتها صهاينة

في فلسطين، فتغضب «انفعال»، ثم تستمع إلى الأخبار والتحليلات السياسية فتجد أن العرب والمسلمين لا يتفاعلون مع هذه الأحداث بالصورة المطلوبة فتحزن «انفعال»، ثم تشاهد مقطعاً مصوراً لعمليات هدم بيوت الفلسطينيين وبناء المستوطنات فتغضب من جديد «انفعال»، ثم تجد أن بعض العرب يمدّ يد السلام في الخفاء لأولئك الصهاينة فتشعر بالأسى والدهشة «انفعال»، وتتراكم هذه الانفعالات بتكرّر الأحداث لتُترجم بعد ذلك إلى حالة من الكراهية للصهاينة، فعندها نقول أن الكراهية «عاطفة».

الحزن والفرح والغضب والجوع والخوف من الانفعالات، وأما الصداقة والحب والكراهية فكلها من العواطف.

ومن أهم ما يميّز بينهما أن:

١. الانفعال تجاه شيء ما حالة فطرية غرائزية تظهر فجأة، أما العاطفة تجاهها فتكون مكتسبة.

٢. الانفعال حالة وجدانية طارئة زائلة، أما العاطفة فحالة فيها نوع من الاستمرار الطويل أمداً.

وكما أن الانفعالات قد تُنتج عاطفة، كذلك فإن العاطفة قد تنتج عنها الانفعالات. فعندما تشعر بالراحة بشكل متكرر لوجود زميلك في العمل «انفعال»، قد يترتب على هذا أن تتحوّل العلاقة بينكما إلى صداقة «عاطفة»، وعندها سيُسَرِّك أن تراه «انفعال»، وتحزن حين يصاب بمرض «انفعال»، وتخاف عليه أن يصاب بأذى «انفعال»، وتغضب له إذا أُهين «انفعال»، وترتاح حين تتنازل عن بعض حقوقك لأجله «انفعال»، وتتعامل معه بصورة مميزة «انفعال».

ومن خلال ما سبق يمكننا القول أن «الحب من أول نظرة» تعبير غير دقيق... لربما هناك انفعال حصل انبهاراً بجمال الشكل ومن أول نظرة، أو إعجاباً لموقف معين إيجابي صدر عن الآخر في أول لقاء، أو لتحرك الغريزة الجنسية وتصور أنها حالة حب، وأمثال ذلك.. أما الحب.. فلا.

نعم، هذه الانفعالات قد تتطور مع الوقت لتتحول إلى حب، وقد لا تتطور وتبقى مجرد انفعالات آنية.. فالحب كعاطفة شيء أعمق من الانفعالات الآنية، وهو يحتاج إلى وقت ومقومات كي يتحقق.

وهذا يعني أن الحب لا يتحقق - نهائياً - من أول نظرة، ولكن قد يكون بداية لرحلة تتكلم بتحقيق الحب. وللأسف عندما يُبنى الزواج أو الرغبة في الزواج على أساس هذا التصوّر الخاطيء للحب، وعدم التمييز ما بين الانفعال والعاطفة، سرعان ما تنهار العلاقة في كثير من الأحيان بعد تحقق الارتباط، وإشباع الغريزة، وتغلغل حالة من التبدّل في المشاعر، والجمود في العلاقة، الأمر الذي قد يؤدّي - ما لم يُتدارك الوضع ويُصلَح - إلى الطلاق، أو نشوب الخلافات، أو البحث عن البدائل المشروعة وغير المشروعة.

وماذا عن علاقتنا الوجدانية بالإمام الحسين عليه السلام، هل هي مجرد انفعالات أم عاطفة؟ هل هي حالة إعجاب مؤقتة «انفعال»، أم استحضار للحزن بمصابه في مواسم معيّنة «انفعال»، أم غضب من أعدائه حين ذكر تفاصيل أحداث كربلاء «انفعال»، أم عاطفة حُب مكتسبة نتيجة اعتقادنا بمقام ولايته، وتوصيات النبي ﷺ بحبه وثنائه عليه، ولكمالاته النفسية، ولمعرفتنا بالجوانب المشرقة من سيرته، ولتضحياته في كربلاء؟



وليتربّ على هذه العاطفة صدور مجموعة انفعالات، سواء في موسم محرم أو خارجه، ومن بينها الحزن والبكاء وتتمظهر في صورة رفع شعار السواد وإقامة المجالس الحسينية وغير ذلك.

وعلى العموم، يمكننا أن ندرك مما سبق أهمية امتلاك الإنسان للعاطفة وللانفعالات معاً بمفهومهما السيكولوجي المعاصر:

١. حيث تلعب العواطف والانفعالات دوراً هاماً في بقائنا. فمن دونهما لن نمتلك - مثلاً - آلية رصد لأيّ تهديد يواجهنا، ولن نمتلك أي شيء يولّد لدينا رغبة في الهرب من هذا التهديد. ومن دونهما لا يمكننا اكتشاف إحساسنا بالجوع وضرورة البحث عن الغذاء، ولن نصبح قادرين على التعرّف على أحد أفراد الجنس الآخر والتزاوج والتكاثر.. بكل بساطة... لا يمكننا أن نبقي ونستمر في الحياة من دون عواطف وانفعالات.

٢. العواطف والانفعالات ضرورية لتحقيق سلامة المجتمع ورفاهيته. فنحن نمتلك قدرة خاصة تمكّننا من

رصد عواطف الآخرين وانفعالاتهم، بل ويصل الأمر أحياناً إلى أن نُخبر شخصاً ما بمشاعره الوجدانية من تعبير وجهه قبل أن يعلم بها هذا الشخص نفسه، وتلعب هذه القدرة الرصدية دوراً محورياً في تنظيم سلوكنا.

فإن لمستَ تألماً في وجه أحدهم، فإنك تعرف في الحال أنه يُعاني من إصابة ما.

وإن لمستَ خوفاً، فإنك أيضاً تعرف أنه يشعر بتهديد أو بخطر ما.

وإن لمستَ غضباً من جانب شخص ما فقد تستنتج أنه ينبغي عليك التوقف عما تفعله.

وإن لمستَ سعادة أو نشوة لديه، فربما تدرك أنه ينبغي عليك الاستمرار فيما تفعل.

• الكفاءة العاطفية :

هذه القدرة على إدراك وفهم عواطف وانفعالات الآخرين يُطلق عليها عنوان «الكفاءة العاطفية»، والناس على مراتب في امتلاك هذه الكفاءة.



بعض الدراسات تشير إلى أن الأطفال والبالغين الأكفاء عاطفياً يميلون إلى التمتع بحياة اجتماعية أنجح. فالأطفال ذوو المستوى الجيد من الكفاءة العاطفية يميلون إلى أن يكونوا أكثر شعبية وسط أقرانهم، يحظون بالمزيد من الأصدقاء، ويظهرون مستويات أعلى من السلوك الاجتماعي الإيجابي مقارنةً بالأطفال الذين ليسوا على نفس القدر من المهارة العاطفية.

كما أن الأطفال الأكفاء عاطفياً يميلون إلى التعلم والأداء بشكل أفضل في المدرسة مقارنةً بأقرانهم الأقل مهارة عاطفية. ولكن ليس بالضرورة دائماً أن يمتلك المتفوقون دراسياً كفاءة عاطفية.

• عاطفة النبي يعقوب:

وقد قدّم لنا القرآن الكريم تلك الصورة التي تجلّت فيها العاطفة الأبويّة والرساليّة الجيّاشة في النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وبصورتها السلبية وانعكاساتها الانفعالية والبيولوجية «هَمَّ - حُزن - بُكاء - عَمى أو ضعف بالبصر». ولو كانت هذه العاطفة والانفعالات القوية وانعكاساتها مقرونة باليأس من رحمة

الله لوقع النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في المحذور، لأن اليأس من
الفرج لا يخلو من أحد أمرين:

إما الشك بقدرة الله عَزَّجَلَّ.. وهذا يعني عجز الله عن
حل المشكلة، أو الشك بعلم الله عَزَّجَلَّ.. وهذا يعني عدم
معرفة الله بأبعاد المشكلة.. وكلاهما مناف لما نؤمن به من
صفات الله عَزَّجَلَّ.

ومن هنا نفى القرآن الكريم على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ
وجود شيء من هذا القبيل في نفسه: ﴿يَا بَنِي إِدْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ
لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، وهذا يعني
أن وجود العاطفة القوية أمرٌ مقبول ما لم تقترن بما هو من
لوازم الكفر والانحراف والوقوع في المعصية، من قبيل
اليأس من رحمة الله عَزَّجَلَّ، والبطر، والظلم، والطغيان،
والبطش، والغفلة.

كما ونجد أن أصحاب البصيرة من قوم قارون نهوه عن
الفرح الذي يؤدي إلى البطر والطغيان: ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ



قَوْمَ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ
لَتَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿١﴾.

• عقلنة العاطفة :

وهكذا، تكون العاطفة القوية وانفعالاتها مقبولة ما لم
تتغلب على العقل وتكون الحاكمة عليه في قرارات الإنسان
وأفعاله وردود أفعاله. فكما أنه من الخطأ أن نتجاهل الجانب
العاطفي وتبعاته الانفعالية ليطغى العقل المجرد على جانب
ليس بأقل أهمية منه، لنصبح كأدوات مجردة من أية عاطفة
وانفعالات نفسية.. كذلك فإن من الخطأ أن تطغى العاطفة
القوية والانفعالات النفسية والبيولوجية على العقلانية التي
هي أساس التميّز الإنساني عن سائر المخلوقات.

ومن هنا نريد لإحياء المناسبة العاشورائية أن تكون
تمازجاً بين الإثنين.. بين العاطفة والعقل.. فلا العاطفة
تُلغى العقل، ولا العقل يُلغى العاطفة. ففي ما يُثار من الروايات
والحكايات والأشعار التي تُطلق في الأجواء العاشورائية ما



هو مقبول.. وما هو غير قابل للتصديق.. والعاطفة القوية قد تتساق لقبول كل شيء.. وتبرير كل شيء.. حتى لو كان في بعض المقولات والأشعار ما يسيء إلى الشخصية العاشورائية في ثقتها بالله، وفي صبرها على المصاب، وفي صمودها في وجه الباطل.

ودور العقل أن يميّز بينها، وأن يُبقي على الصورة الحقيقية البعيدة عن المبالغة والخرافة للحدث العاشورائي.. وعلى الصورة الإيمانية والمجاهدة والصابرة للشخصية العاشورائية. عندما نسمع شيئاً نحاول أن نفعل دور عقولنا، فلا نقبل ما يسيء إلى النهضة الحسينية وإن صيغ بعنوان عاطفي.. ونقارن بين ما نسمع هنا وما نسمع هناك، فننتج أحسنه..

هذا من جهة، ومن جهة ثانية علينا أن نتعلم أن تكون عاطفتنا العاشورائية حزناً واعياً يجعلنا نعيش واقعنا ولا نستغرق في التاريخ فقط.. بل نعمل على تغيير حاضرننا، ورسم سياسة مستقبنا بما يتناسب والزمان والمكان.

وثالثاً، بأن نسيطر على حزننا فلا ينفلت لنقول ما



لا يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نفعل ما يسيء إلى ديننا وإيماننا ومعتقدنا ومدرسة أهل بيت نبينا ﷺ مما ينساق وراءه البعض ممن تجرفهم العاطفة القويّة ليجرّروا كلّ فعل مهما قُبِحَ أو حُرِّمَ بعنوان أنها من الشعائر الحسينية الواجبة شرعاً أو المستحبة، وهي بعيدة كل البعد عن ذلك.

ورابعاً، أن لا ننساق وراء العاطفة القويّة فتحوّل هذه الذكرى إلى مناسبة لتأجيج الصراع الطائفي، وإظهار المناسبة وكأنها انتصارٌ لمذهب على آخر، وانتقامٌ من مذهب لحساب مذهبٍ آخر.

فإحياء ذكرى عاشوراء ليس لتصفية الحسابات مع أتباع أيٍّ من المذاهب الإسلامية، بل يجب أن يكون ملتقىً يجمع المسلمين على مبادئ قرآنية مشتركة، وعلى إحياء ذكرى شخصيات رسالية يشترك كل المسلمين في تعظيمها، وعلى استذكار مشهدٍ من التاريخ تتجلّى فيه مبادئ الإسلام وقيم الإنسانية، وقبح الظلم والاستكبار والفساد والطغيان.

هنا أيضاً يأتي دور العقل ليحذّر صاحبه من كل الأيدي الخفية التي تعمل في الظلام لتستغلّ مثل هذه المناسبات

التي تهيج فيها العاطفة لتثير الفتن بين المسلمين تحت
ذريعة الانتصار للمذهب ولشخصياته المقدسة.

لابد أن تبقى العاطفة في عاشوراء، لأننا إذا فرغنا
القضية من العاطفة فإنها تموت، والذي أبقى ذكرى
عاشوراء في ضمائر الناس وفي وعيهم عبر القرون هو الحقُّ
والعاطفة معاً.

ولابد أن يبقى العقل في عاشوراء، لأننا إذا فرغنا
القضية من العقل فإنها تنحرف عن مسارها، والذي أبقى
قيَم عاشوراء وشعاراتها وأخلاقياتها السامية هو الحقُّ
والعاطفة معاً.





عاشوراء والعاطفة - القسم الثاني



ذكرت في القسم الأول أن العاطفة مطلوبة في إحياء المناسبة العاشورائية، بل هي ركن ركين فيه، دون أن يعني ذلك إلغاء دور العقل في ما له علاقة بالإحياء على مستوى ذكر الحدث وتفصيله، أو إلغاء دور العقل في القضايا المطروحة بشكل موازٍ في الخطب وأشعار الندب وقصائد المدّاحين، أو إلغاء دور العقل من خلال الاستغراق في

الماضي وحَبَسَ الذكرى فيه. ومع الإقرار بمحوريّة العاطفة هنا بمعِيّة العقل، إلا أنّ المشهود طغيان البُعد العاطفي على العقلي في إحياء المناسبة في تفاصيلها وشعائرها ومضامينها، ولذلك صور عديدة، من بينها قبول ما يُروى حول أحداث النهضة الحسينية وشخصياتها، مهما كان هذا المروي غريباً وغير منطقي ويصعب قبوله.. بل ويُستَـمات في تبريره ومحاولة «عقلنته».

من أمثلة ذلك ما يُروى من أن عدد الذين حاربوا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ستمائة ألف من الخيالة، ومليوناً من المشاة، وفي رواية أن الإمام قد قتل منهم ثلاثمائة ألف، وقتل العباس منهم خمساً وعشرين ألفاً!

قال المحدث حسين النوري الطبرسي «ت ١٣٢٠هـ» صاحب «مستدرك وسائل الشيعة» في كتابه «اللؤلؤ والمرجان»: (لا زلت أذكر عندما كنت في كربلاء المقدسة أحضر درس العلامة الشيخ عبد الحسين الطهراني «طاب ثراه» الذي ليس له في التبجّر والفضل والإتقان عدل، جاءه سيد عربي قاريء عزاء من الحِلّة، وكان أبوه من



وجهاء الطائفة، وقد ورث عنه كتباً قديمة فأراد أن يستعلم حال أحد الكراسات التي ورثها عن أبيه هل هو مُعتبر أم غير مُعتبر، ولم يكن لذلك الكراس بداية ولا نهاية، وقد كُتب في حاشيته: «هذا من مؤلفات العالم الفلاني»^(١) من علماء جبل عامل من تلامذة المحقق صاحب المعالم^(٢). وبما أن اسمه كان موجوداً في تراجم الرجال، فقد أمكن الاستعلام عن حاله، فلم يوجد بين مؤلفاته اسم ذلك «المقتل»، وعندما طالع «رحمه الله» في ذلك الكتاب أدرك أنه لكثرة اشتماله على الأكاذيب الواضحة والأخبار الواهية لا يُحتمل أن يكون مؤلفه عالماً، فنهى ذلك السيد عن نشره والنقل عنه. ولكن بعد عدة أيام أطلع عليه - في بعض المناسبات - أحد الفضلاء المعروفين الساكنين العتبات العالية^(٣)، فأخذه من السيد. وبما أنه كان مشغولاً

(١) شهاب الدين العاملي.

(٢) أي من تلامذة الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني زين الدين العاملي.
(٣) وهو آغا بن عابد بن رمضان بن زاهد الشيرواني الحائري والمشهور باسم الفاضل الدربندي «ت ١٢٨٥هـ» صاحب كتاب «إكسير العبادات في أسرار الشهادات». وقد انتقد العلامة السيد محسن الأمين كتابه هذا بقوله: «أتى فيه بالغرائب وبأمور توجب عدم الاعتماد عليه».

بتأليف كتابه «أسرار الشهادة»، فقد أدرج فيه روايات ذلك الكتاب وأضافها إلى الأخبار الواهية المجعولة التي لا حصر لها، الموجودة في كتابه المزبور، فاتحاً بذلك للمخالفين أبواب الطعن والسخرية والاستهزاء، وقد وصلت به همته^(١) إلى درجة أنه جعل جيش الكوفة مليوناً وستماية ألف، منهم مليون راجل والباقي فرسان، مهياً بذلك لجماعة قراء العزاء ميداناً فسيحاً لا يبلغون منتهاه مهما أطلقوا لأنفسهم العنان. وقد أوغلوا في الافتراء على علمائنا العظام بكثرة ترددهم قول: «قال الفاضل الدربندي»، والفاضل المذكور من العلماء المبرزين والأفاضل المعروفين، وليس لإخلاصه لخامس آل العبا^(٢) «عليهم آلاف التحية والسلام» حد ولا نظير، إلا أن هذا الكتاب ليس له أي وقع ولا اعتبار لدى علماء هذا الفن وجهابذة الحديث والسّير، بل إن نفس المؤلف يعترف في كتابه بضعف رواياته، ويبرز بعض العلامات الدالة على كذبها ووضعها، إلا أنه راح يبرّر سبب نقله لها، فكان شريكاً في ما سببته تلك الروايات من الفساد.

(١) أي مدي خياله.

(٢) أي للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام... وأهل العبا، أي أهل الكساء.



ومن المطالب العجيبة التي نقلها لي مشافهة أنه سمع في ما مضى أن العالم الفلاني قال أو روى أن يوم عاشوراء كان سبعين ساعة، وأنه كان يستغرب ذلك حينها ويتعجب من ذلك النقل، لكنه حينما فكر وتأمل في وقائع اليوم العاشر تأكد وتيقن أن ذلك النقل صحيح، وأن تلك الوقائع لم يكن لها لتحصل لولا تلك المدة من الزمن^(١).

ومن الأمثلة الأخرى ما جاء في كتاب «مدينة المعاجز» لـ للسيد أبي المكارم هاشم البحراني «ت ١١٠٧هـ» حيث قال: (روي أن الحسين لما كان في موقف كربلاء، أتته أفواج من الجن الطيارة، وقالوا له: «يا حسين، نحن أنصارك فمُرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كل عدو لكم لفعلنا. فجزاهم خيراً، وقال لهم: إني لا أخالف قول جدي رسول الله حيث أمرني بالقدوم عليه عاجلاً، وإني الآن قد رقدت ساعة، فرأيت جدي رسول الله ﷺ قد ضمّني إلى صدره، وقبل ما بين عيني، وقال لي: يا حسين، إن الله عز وجل قد شاء أن يراك مقتولاً، ملطخاً بدمائك، مختضباً شيبك

(١) النوري: اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، ص ٢٠٠-٢٠١.

بدمائك، مذبحاً من قفاك، وقد شاء الله أن يرى حُرْمَكَ
سبايا على أقتاب المطايا، وإني والله سأصبر حتى يحكم
الله بأمره وهو خير الحاكمين^(١).

المثال الآخر مجموعة قصص الطائر الأبيض واليهودي
والأسد ونَدَمَ يزيد، والتي رواها المجلسي في «بحار الأنوار»
دون ذكر المصدر ولا السند، وبعبارات مسجوعة ركيكة،
ولغة غير معهودة عن أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وفيها من
الغرائب والعجائب ما يُضحك الثكلى، وقد بدأ المجلسي
هذه السلسلة من القصص كالتالي: (أقول: رُوي في بعض
مؤلفات أصحابنا مُرسلاً أن نصرانياً أتى رسولا من ملك
الروم إلى يزيد «لعنه الله تعالى» وقد حضر في مجلسه
الذي أتى إليه فيه برأس الحسين، فلما رأى النصراني
رأس الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بكى وصاح وناح، حتى ابتلت لحيته
بالدموع ثم قال: اعلم يا يزيد.....) ونقل المجلسي كلام
النصراني إلى أن بلغ المقطع التالي: (ثم إن النصراني
نهض إلى رأس الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ واحتضنه وجعل يُقبّله

(١) البحراني: مدينة المعاجز، ص ٦٠-٦١.



وهو يبكي ويقول: يا حسين، اشهد لي عند جدك محمد المصطفى، وعند أبيك علي المرتضى، وعند أمك فاطمة الزهراء «صلوات الله عليهم أجمعين». قال^(١): وروي من طريق أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنه لما استشهد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقي في كربلاء صريعاً، ودمه على الأرض مسفوحاً، وإذا بطائر أبيض قد أتى وتمسح بدمه، وجاء والدم يقطر منه، فرأى طيوراً تحت الظلال على الغصون والأشجار، وكلُّ منهم يذكر الحَبَّ والعلف والماء، فقال لهم ذلك الطير المتلطف بالدم: يا ويلكم! أتشتغلون بالملاهي، وذكر الدنيا والمناهي، والحسين في أرض كربلاء في هذا الحر ملقى على الرمضاء، ظاميء مذبوح، ودمه مسفوح، فعادت الطيور كل منهم قاصداً كربلاء، فرأوا سيدنا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ملقى في الأرض جثة بلا رأس، ولا غسل ولا كفن، قد سفت عليه السواقي^(٢)، وبدنه مرضوض قد هشمته الخيل بحوافرها، زواره وحوش القفار، وندبته جنُّ السهول والأوعار، قد

(١) لا يصح أن يكون النصراني، لأنه سيروي عن أهل البيت أحداثاً، فغَمَّنْ أخذها؟ وستكرر عن طريق المجلسي كلمة «قال»، والقائل مجهول.
(٢) الصحيح «السواف» من دون ياء: الرياح.

أضاء التراب من أنواره، وأزهر الجو من أزهاره. فلما رآته الطيور، تصايحن وأعلنن بالبكاء والثبور، وتواقعن على دمه يتمرغن فيه، وطار كل واحد منهم إلى ناحية يُعلم أهلها عن قتل أبي عبد الله الحسين عَلَيْهِ السَّلَام، فمن القضاء والقدر أن طيراً من هذه الطيور قصد مدينة الرسول وجاء يُرفرف والدم يتقاطر من أجنحته^(١)، ودار حول قبر سيدنا رسول الله يعلن بالنداء: أَلَا قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا، أَلَا ذُبِحَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا! فاجتمعت الطيور عليه وهم يكون عليه وينوحون. فلما نظر أهل المدينة من الطيور ذلك النوح، وشاهدوا الدم يتقاطر من الطير لم يعلموا ما الخبر حتى انقضت مدة من الزمان، وجاء خبر مقتل الحسين، علموا أن ذلك الطير كان يُخبر رسول الله^(٢) بقتل ابن فاطمة البتول، وقرة عين الرسول. وقد نُقل^(٣) أنه في ذلك اليوم الذي جاء فيه الطير إلى المدينة، كان

(١) كيف لهذا الدم أن لا يجف والمسافة بين كربلاء والمدينة المنورة مئات الكيلومترات؟!؟

(٢) وهل كان النبي وهو في عالم البرزخ بحاجة إلى الطير كي يُخبره بمقتل ابنه الحسين؟! أم كان اجتهداً من ذلك الطير، فأخطأ؟!؟

(٣) من الناقل؟ يبدو أن الراوي لم تكفه الكذبة الأولى فزاد عليها.



في المدينة رجل يهودي وله بنت عمياء زمنا^(١) طرشاء مشلولة، والجذام قد أحاط ببدنها، فجاء ذلك الطائر والدم يتقاطر منه، ووقع على شجرة، يبكي طول ليلته، وكان اليهودي قد أخرج ابنته تلك المريضة إلى خارج المدينة إلى بستان، وتركها في البستان الذي جاء الطير ووقع فيه، فمن القضاء والقدر أن تلك الليلة عرّض لليهودي عارضٌ، فدخل المدينة لقضاء حاجته، فلم يقدر أن يخرج تلك الليلة إلى البستان التي فيها ابنته المعلولة، والبنت لما نظرت أباه لم يأتها تلك الليلة، لم يأتها نوم لوحدتها لأن أباه كان يُحدّثها ويسلّيها حتى تنام. فسمعت عند السحر بكاء الطير وحنينه، فبقيت تتقلّب على وجه الأرض إلى أن صارت تحت الشجرة التي عليها الطير، فصارت كلما حنّ ذلك الطير تُجاوبه من قلب محزون، فبينما هي كذلك إذ وقع قطرة من الدم فوقعت على عينها ففتحت، ثم قطرة أخرى على عينها الأخرى فبرأت، ثم قطرة على يديها فعوفيت، ثم على رجليها فبرأت، وعادت

كلما قطرت قطرة من الدم تلطّخ به جسدها فعوفيت من جميع مرضها من بركات دم الحسين عَلَيْهِ السَّلَام^(١)، فلما أَصْبَحَتْ أَقْبَلَ أَبُوهَا إِلَى الْبِسْتَانِ فَرَأَى بِنْتًا تَدُورُ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا ابْنَتُهُ، فَسَأَلَهَا أَنَّهُ كَانَ لِي فِي الْبِسْتَانِ ابْنَةٌ عَلِيلَةٌ لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَتَحَرَّكَ، فَقَالَتْ ابْنَتُهُ: وَاللَّهِ أَنَا ابْنَتُكَ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهَا وَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ فَأَتَتْ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الطَّيْرِ، فَرَأَاهُ وَاکْرَأَ عَلَى الشَّجَرَةِ يَتْنُ مِنْ قَلْبٍ حَزِينٍ مُحْتَرَقٍ مِمَّا رَأَى مِمَّا فَعَلَ بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ، بِالَّذِي خَلَقَكَ أَيُّهَا الطَّيْرُ، أَنْ تَكَلِّمَنِي بِقُدْرَةِ اللَّهِ «تَعَالَى»، فَنَاطِقُ الطَّيْرِ مُسْتَعْبِرًا ثُمَّ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ وَاکْرَأَ عَلَى بَعْضِ الْأَشْجَارِ مَعَ جَمَلَةِ الطَّيُورِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، وَإِذَا بِطَيْرٍ سَاقِطٍ عَلَيْنَا، وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا الطَّيُورُ تَأْكُلُونَ وَتَتَنَعَّمُونَ، وَالْحُسَيْنُ فِي أَرْضِ كَرْبَلَا فِي هَذَا الْحَرِّ عَلَى الرَّمْضَاءِ طَرِيحًا ظَامِمًا وَالنَّحْرَ دَامَ، وَرَأْسَهُ مَقْطُوعَ، عَلَى الرَّمْحِ مَرْفُوعَ، وَنَسَاؤُهُ سَبَايَا، حِفَاةَ عَرَايَا، فَلَمَّا سَمِعَنَ بِذَلِكَ تَطَايَرْنَ إِلَى كَرْبَلَا فَرَأَيْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْوَادِي طَرِيحًا:

(١) أَحْسَنَ هَذَا الْوَضَاعُ فِي الضَّرْبِ عَلَى وَتَرِ الْعَاطِفَةِ لِيَسْتَسْلِمَ السَّامِعُونَ لِرَوَايَتِهِ وَيَأْخُذُونَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَسُخْفِهَا.



الغُسل من دمه، والكفن الرمل السافي عليه، فوقعنا كلنا عليه نوح ونتمرغ بدمه الشريف، وكان كلُّ منّا طار إلى ناحية، فوقعتُ أنا في هذا المكان. فلما سمع اليهودي ذلك تعجب وقال: لو لم يكن الحسين ذا قدر رفيع عند الله ما كان دمه شفاء من كل داء، ثم أسلم اليهودي وأسلمت البنت وأسلم خمسمائة من قومه. وقال^(١): حُكي عن رجل أسدي قال: كنت زارعاً على نهر العلقمي بعد ارتحال العسكر، عسكر بني أمية، فرأيت عجائب لا أقدر أحكي إلا بعضها، منها أنه إذا هبت الرياح، تمرّ علي نضحات كنضحات المسك والعنبر، إذا سكنت أرى نجومًا تنزل من السماء إلى الأرض ويرقى من الأرض إلى السماء مثلها^(٢)، وأنا منفرد مع عيالي ولا أرى أحداً أسأله عن ذلك، وعند غروب الشمس يُقبل أسد من القبلة فأولّي عنه إلى منزلي، فإذا أصبح وطلعت الشمس وذهبت من منزلي أراه مستقبل القبلة ذاهباً، فقلت في نفسي: إن هؤلاء خوارج قد خرجوا

(١) كما ذكرت مسبقاً من غير الواضح من القائل هنا.

(٢) وهل النجوم نقاط صغيرة من الضوء أم أجرام هائلة الحجم قد تفوق الشمس بآلاف المرات؟

على عبيد الله بن زياد فأمر بقتلهم، وأرى منهم ما لم أره من سائر القتلى، فوالله هذه الليلة لا بد من المساهرة لأبصر هذا الأسد يأكل من هذه الجثث أم لا؟ فلما صار عند غروب الشمس وإذا به أقبل، فحققته وإذا هو هائل المنظر، فارتعدت منه، وخطر ببالي: إن كان مراده لحوم بني آدم فهو يقصدني، وأنا أحاكي نفسي بهذا فمثّلته وهو يتخطّى القتلى حتى وقف على جسد كأنه الشمس إذا طلعت، فبرك عليه فقلت يأكل منه وإذا به يمرّ وجهه عليه، وهو يهّمهم ويُدّمدم، فقلت: الله أكبر، ما هذه إلا أعجوبة، فجعلت أحرسه حتى اعتكر الظلام^(١) وإذا بشموع معلقة ملأت الأرض، وإذا ببكاء ونحيب ولطم مفجع، فقصدت تلك الأصوات فإذا هي تحت الأرض ففهمت من ناع فيهم يقول: «وا حسينا! وإماماه!» فاقشعر جلدي فقربت من الباكي وأقسمت عليه بالله وبرسوله: من تكون؟ فقال: إنا نساء من الجن. فقلت: وما شأنكن؟ فقلن: في كل يوم وليلة هذا عزاؤنا على الحسين الذبيح

(١) أي أقبل واشتد.



العطشان. فقلت: هذا الحسين الذي يجلس عنده الأسد؟
 قلن: نعم، أتعرف هذا الأسد؟ قلت: لا. قلن: هذا أبوه علي
 بن أبي طالب. فرجعت ودموعي تجري على خدي. قال ^(١):
 ونُقل أن سكينه بنت الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قالت: «يا يزيد، رأيت
 البارحة رؤيا إن سمعتها مِنِّي قصصتها عليك. فقال يزيد:
 هاتي ما رأيتي ^(٢)». قالت: بينما أنا ساهرة وقد كَلَلْتُ من
 البكاء بعد أن صليت ودعوت الله بدعوات، فلما رَقَدَت عيني
 رأيت أبواب السماء قد تَفَتَّحت، وإذا أنا بنور ساطع من
 السماء إلى الأرض، وإذا أنا بوصائف من وصائف الجنة،
 وإذا أنا بروضة خضراء، وفي تلك الروضة قَصْر، وإذا أنا
 بخمس مشايخ يدخلون إلى ذلك القصر وعندهم وصيف،
 فقلت: يا وصيف، أخبرني لمن هذا القصر؟ فقال: هذا
 لأبيك الحسين أعطاه الله «تعالى» ثواباً لصبره. فقلت:
 ومن هذه المشايخ؟ فقال: أما الأول فآدم أبو البشر، وأما
 الثاني فنوح نبي الله، وأما الثالث إبراهيم خليل الرحمن،
 وأما الرابع فموسى الكليم. فقلت له: ومن الخامس الذي

(١) مجدداً من غير الواضح من القائل هنا على وجه التحديد.

(٢) هكذا جاء، والصحيح: «ما رأيته».

أراه قابضاً على لحيته، باكياً حزيناً من بينهم؟ فقال لي:
يا سَكينة أما تعرفه^(١)؟ فقلت: لا، فقال: هذا جدك رسول
الله. فقلت له: إلى أين يريدون؟ فقال: إلى أبيك الحسين.
فقلت: والله لألحقنّ جدي وأخبرته^(٢) بما جرى علينا،
فسبقني ولم ألحقه، فبينما أنا متفكرة وإذا بجدي علي بن
أبي طالب، وبيده سيفه، وهو واقف فناديته: يا جداه، قُتل
والله ابنك من بعدك، فبكى وضمّني إلى صدره، وقال: يا
بنية صبراً والله المستعان، ثم إنه مضى ولم أعلم إلى أين،
فبقيت متعجبة كيف لم أعلم به، فبينما أنا كذلك إذا بباب
قد فُتح من السماء، وإذا بالملائكة يصعدون وينزلون
على رأس أبي، قال: فلما سمع يزيد ذلك، لطم على وجهه
وبكى^(٣)، وقال: مالي ولقتل الحسين؟^(٤).

المثال الرابع ما جاء في نسخة من كتاب الكافي للكليني

(١) هكذا في المصدر، والصحيح: «أما تعرفينه؟»

(٢) الصحيح: «فأخبره»، ويبدو أن الوضاع لم يكن عربيّ اللسان.

(٣) ما غاية هذا الوضاع من ذلك؟ إظهار ندم يزيد الذي قتل بعد
الحسين أهل المدينة المنورة وأباحها لجنده، ثم أمر بانتهاك حرمة
المسجد الحرام وضرب الكعبة بالمنجنيق وقتل المتحصنين فيه؟

(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٨٩-١٩٤.

من أن بعضاً من الملائكة أرادوا نُصرتَه فتأخَّروا: (وفي نسخة الصفواني زيادة^(١)): علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن أبي عبد الله البزّاز، عن حريز قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَام: جعلت فداك ما أقلّ بقاءكم أهل البيت وأقرب آجالكم بعضها من بعض مع حاجة الناس إليكم؟ فقال: إنّ لكل واحد منا صحيفة فيها ما يحتاج إليه أن يعمل به في مدته، فإذا انقضى ما فيها مما أمر به، عرف أنّ أجله قد حضر، فأتاه النبي ﷺ ينعى إليه نفسه وأخبره بما له عند الله. وإن الحسين عَلَيْهِ السَّلَام قرأ صحيفته التي أعطيتها، وفَسَّرَ له ما يأتي بنعي، وبقي فيها أشياء لم تُقَضْ، فخرج للقتال وكانت تلك الأمور التي بقيت أن الملائكة سألت الله في

(١) جاء في حاشية الكافي: (هذا كلام بعض رواة الكليني، فإن نسخ الكافي كانت بروايات مختلفة كالصفواني هذا وهو محمد بن أحمد بن عبد الله بن قضاة بن صفوان الجمال وكان ثقة فقيها فاضلاً، ومحمد بن إبراهيم النعماني، وهارون بن موسى التلعكبري، وكان بين تلك النسخ اختلاف، فتصدّى بعض من تأخر عنهم كالصدوق محمد بن بابويه والشيخ المفيد وأضربهما «رحمة الله عليهما» فجمعوا بين النسخ وأشاروا إلى الاختلاف الواقع بينهما، ولمّا كان في نسخة الصفواني هذا الخبر الآتي ولم يكن في سائر الروايات أشاروا إلى ذلك بهذا الكلام).

نصرته فأذن لها ومكثت تستعد للقتال وتتأهب لذلك (١) حتى قُتل فنزلت وقد انقطعت مدته وقتل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالت الملائكة: يا رب أذنت لنا في الانحذار وأذنت لنا في نصرته، فأنحدرنا، فأوحى الله «تبارك وتعالى» إليهم: «أن الزموا قبره حتى ترونه وقد خرج فانصروه وابكوا عليه وعلى ما فاتكم من نصرته، فإنكم خُصصتم بنصرته والبكاء عليه». فبكت الملائكة حزناً وجزعا على ما فاتهم من نصرته، فإذا خرج (٢) عَلَيْهِ السَّلَامُ يكونون أنصاره (٣).

قد يقال: ما المانع في أن يسمح الله عَزَّجَلَّ لملائكته بنصرة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله نصر بهم نبيه ﷺ والمسلمين يوم بدر؟ قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ، بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم

(١) هل الملائكة كالبشر بحاجة إلى شحذ السيوف وإعداد الأقواس والنبال، أم إلى إعداد الدروع والمجن كي تتأخر في ذلك؟
(٢) أي في آخر الزمان بالعودة إلى الحياة من جديد بعد ظهور الإمام المهدي، ووفق عقيدة الرجعة.

(٣) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٨٣.

مِّنْ قَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١﴾ .

والجواب عن ذلك أن الله عَزَّجَلَّ لم يرسل أولئك الملائكة ليتدخلوا عسكرياً في الحرب، وإلا لكفى أن يرسل ملكاً واحداً ليقضي عليهم في لحظة، فقد كان عدد المشركين في حدود الألف مقاتل، ولم يُقتل منهم إلا سبعين، وفي الروايات أن علياً قتل نصفهم أو ما يقارب ذلك، وقُتل آخرون على يد بعض المسلمين وقد حُدِّت أسماؤهم، فهل عجز هذا العدد الهائل من الملائكة عن قتل أى من المشركين؟ أم أنهم وصلوا متأخرين أيضاً؟

لقد كان إنزالهم في تلك الحرب لغرض نفسي معنوي لا أكثر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) . فلم يكن من شأنهم القتال، ولم يحملوا سلاحاً، ولم يقتلوا أحداً.

وهكذا تعبر آيات أخرى نزلت في أجواء غزوة بدر عن

(١) سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٦.

دور الملائكة بالتثبيت، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يَغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ، ذَلِكَ بَأْنُهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١).

قال العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في «الأمثل» عند تفسير الآيات السابقة: (لقد جرى البحث في هذه المسألة كثيراً بين المفسرين، فبعضهم يرى أن الملائكة دخلت ساحة القتال وهاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصة،

وقتل بعضهم. ونُقلت بعض الروايات في تأييد ذلك. إلا أنَّ القرائن تؤيد الرأي الذي يقول: إنَّ الملائكة نزلت لتطمئن قلوب المؤمنين، ويزداد عزمهم، وهذا الرأي أقرب إلى الواقع لعدَّة أدلة، أولاً: لقد قرأنا في الآية قوله «تعالى»: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾. فإذا ما علم المسلمون بهذا المدد فإنهم يقاتلون بصورة أفضل، لا أن الملائكة شاركت في الحرب. ثانياً: إذا كانت الملائكة هي التي قتلت جنود الأعداء، فأية فضيلة للمجاهدين في معركة بدر وما ورد عن مقامهم ومنزلتهم من روايات كثيرة؟ ثالثاً: كان عدد المقتولين في بدر هو «٧٠ نفرًا» وقد كان الكثير منهم قد سقط بسيف علي عليه السلام، والقسم الآخر بيد المقاتلين الآخرين، وهؤلاء معروفون بأسمائهم في التاريخ، فبناءً على ذلك - من الذي - بقي لتقتله الملائكة؟! (١).

• تغيير الفكر:

ونجد غلبة العاطفة على العقل عند شريحة كبيرة في

(١) الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. وقد ناقشت الموضوع في كتابي «السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد»، فراجع.

عموم ما يُقال وما يؤتَى به في أجواء إحياء المناسبة، دون أن يكون للطرح الفكري والاستفادة العملية من الإحياء أثرٌ ولا حتى على مستوى مزاجهم العام. ويمكن أن نضيف إلى ذلك إصرار البعض على إقصاء كل ما هو فكر عن طرح المنابر الحسينية، لا سيما في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم.. واعتبار أن مقياس نجاح الخطيب الحسيني في مدى قدرته على إبكاء الجماهير واستثارة عواطفهم، واستدراار دموعهم.. وأنّ مدى إخلاص صاحب المجلس متعلّق بكثرة الرواد ومدى تفاعلهم العاطفي مع هذا النمط الخطابي.

• مظاهر سلبية :

ونجد غلبة العاطفة على العقل في بعض المظاهر غير المقبولة مما تمّ إدراجها تحت عنوان «الشعائر الحسينية» وذلك من قبيل: تطبير الأطفال، التطيين، كلاب رقية، المشي على النار، المشي على ظهور الزائرين، الجلد بالسلاسل والأمواس، الجلد بالسيوف، ولا علاقة للشعائر الحسينية بكل هذه البدع التي شوّهت صورة إحياء الذكرى الحسينية، وقدّمتها للعالم بأبشع صورة.

• امتناع التطبيق:

ويضاف إلى ما سبق، إصرار البعض على تحييد الثورة الحسينية ومعطياتها عن التطبيق على الواقع على اعتبار أنها حالة استثنائية لا يجوز الاستفادة منها وإسقاطها على أي مشهد من مشاهد الواقع، ولا استخلاص تكليفنا الشرعي منها.

• تعمّد الكذب:

ونجد غلبة العاطفة على العقل عند البعض في الترويج لقبول تعمّد الكذب في ما يُطرح من خلال المنبر الحسيني بذريعة أنّ الأهم هو ذرف الدموع حزناً على المصاب وإن كانت الوسيلة بمثل الكذب!

وقد صنّف المحدث النوري كتاب «اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر» بناءً على طلب أحد علماء الهند الكبار وهو مولوي السيد محمد مرتضى جونبوري الهندي، والخاص بالتعليق على نشر الأكاذيب من خلال المنبر الحسيني، وفي ذلك يقول: (قد شكّا - ذلك العالم - مراراً من إقبال

بعض قراء العزاء وأهل المنبر على تحرّي المبالغة ونشر الأكاذيب والروايات المزعومة دون خوف أو ورع، بل إن بعض هؤلاء يزعم جواز ذلك وإباحته، إذ أن الغاية منه إبكاء المؤمنين على الإمام الحسين وهذا ما يُخرجه - بنظرهم - من دائرة القبح والحرمة. وقد طلب مني أن أكتب شيئاً حول ذلك من باب الموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، عسى أن ينتبه هؤلاء الغافلون ويرتدعوا عن ارتكاب هذه القبائح. ويظهر أن جنابه العالي يظن أن الطائفة الشيعية التي تقطن في بلاد العتبات المقدسة في إيران في راحة وفراغ بال من هذه الورطة وأنها لم تُلوّث بهذه الأكاذيب والافتراءات بعد، وأن الخلل الديني لا يزال منحصراً في بعض البلاد النائية ولم يُنشر في أنحاء بلاد الشيعة، غافلاً عن أن هذا التلوّث الهدّام قد انتشر من منبعه في كل صوب وناحية^(١).

وقد قام المحدث النوري بعد ذكر آيات وروايات كثيرة في ذمّ الكذب والثناء على الصدق بتلخيص ٤٠ مفسدة

(١) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ٢٦.



للکذب، ثم عقد باباً في كتابه عن «أقسام الکذب وأحكامها» قال في جانب منه حول الکذب على الرسول أو الإمام في أمور الدين: (ومثاله في هذا المقام ما يقوله قراء العزاء من أنه وبعد نزول علي الأكبر إلى الميدان ومجيء الحسين إلى أمه ليلی قال لها عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قومي وادعي الله في الخلاء لابنك فإني قد سمعت جدي يقول: إن دعاء الأم بحق ولدها مستجاب» إلى آخر الخبر الذي كله كذب في كذب^(١).

ثم ضرب مثلاً على الکذب على الرسول أو الإمام في أمور الدنيا، قال: (ومثاله ما يفتريه بعض القراء من أن زينب «سلام الله عليها» جاءت إلى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حال احتضاره وينقلون عن لسانها كلمات غريبة فصيحة يجعلون منها دليلاً على صحة هذا الخبر المجعول، فينقلون أنه رمقها بطرفه فقال لها: أخية، ارجعي إلى الخيمة فقد كسرت قلبي، وزدت كربي^(٢)).

(١) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ١٢٨.

(٢) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ١٢٨.

وقال حول نسبة بعض الأفعال إليهم كذباً: (ومثاله قول قرء العزاء أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ عِدَّةَ حِمَالَاتٍ، قَتَلَ فِي كُلِّ حِمْلَةٍ عَشْرَةَ آلَافٍ)^(١).

وذكر المحدث النوري من أنواع الكذب، الكذب على الأموات، قال: (وهو من الكذب القبيح المبتدع حديثاً، وقد أصبح شائعاً بين زائري الحرم المنور لسيد الشهداء عَلَيْهِ السَّلَامُ بل حتى الزائرين عن بُعد، الذي يقرأون الزيارة المعتبرة والتي يوجد في آخرها زيارة الشهداء: «فُرِّتُمْ بِالْجَنَانِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحُسِّنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقاً». ثم يضيفون - كما يفعل العوام الذين هم كالأنعام -: «السلام على أبيضكم وعلى أسودكم وعلى مَنْ كَانَ فِي الْحَايِرِ مِنْكُمْ، وَعَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَايِرِ مَعَكُمْ، خُصُوصاً سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَبَا الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَاسِمِ بْنِ الْحَسَنِ، وَمُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ، وَهَانِي بْنِ عُرْوَةَ، وَحَبِيبِ بْنِ مَظَاهِرٍ، وَالْحَرِّ الشَّهِيدِ الرِّيَّاحِيِّ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ يَا سَادَتِي وَمَوَالِيَّ

(١) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ١٢٨.



جميعاً ورحمة الله وبركاته». فإن هذه الكلمات المتضمنة
 لعدة أكاذيب، فضلاً عما فيها من الجرأة في ارتكاب البدع
 بإضافة ما لم يقله الإمام، قد أصبحت شائعة ومتعارفة
 تُقرأ بصوت عالٍ آلاف المرات في الليل والنهار في مرقد أبي
 عبد الله الحسين عَلَيْهِ السَّلَام، وفي محضر الملائكة المقربين
 ومطاف الأنبياء المرسلين، وليس هناك مَنْ يعترض على
 ذلك ولا مَنْ ينهى عن ارتكاب مثل هذه المعصية، وشيئاً
 فشيئاً تدخل هذه الكلمات في ضمن زيارات وأدعية الحمقى
 من العوام، وقد يوضع لها بعض العناوين لترويجها مثل
 «طُبِعَ حديثاً» أو «صَدَرَ جديداً» ونحو ذلك، فتنقل من
 مجموعة هذا الأحمق إلى مجموعة أخرى، ويتطوّر الأمر
 حتى يوقع طلبة العلوم بالغلط والاشتباه. وقد رأيت بعض
 الطلبة يقرأ هذه الأكاذيب القبيحة في زيارة الشهداء،
 فوضعتُ يدي على كتفه وقلت له: أليس قبيحاً صدور هكذا
 أكاذيب عن أهل العلم في هكذا محضّر؟ فقال: أَوَ لَيْسَتْ
 مروية؟ فقلت: لا. فقال: لقد رأيتها في الكتاب. فقلت: في
 أي كتاب؟ فقال: في مفتاح الجنان) وليس مفاتيح الجنان

للشيخ عباس القمي، وكتاب «مفتاح الجنان» كتاب للزيارة والدعاء، قال بشأنه الآغا بزرك الطهراني «ت ١٣٨٩هـ» برقم «٥٢٩٤»: «مفتاح الجنان: في الأدعية والأعمال المتعلقة بالأيام والشهور والزيارات وبعض الأوراد والختمات، وقد طُبِعَ مراراً عديدة، ولا يعرف جامعته إلا أنه أورد فيه بعض ما لم يظهر مستنده، بل بعض ما ليس له مستند قطعاً، وقد تعرّض له شيخنا النوري في اللؤلؤ والمرجان، ونُسَخُه مختلفة بالزيادة والنقصان من مباشري طبعه^(١). وقال السيد يحيى، إمام الجماعة بمشهد الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مؤلفه هو الشيخ أسد الله الطهراني الحائري المتوفى بمشهد الرضا سنة ١٣٣٣، وكان من أصحاب العلامة الأنصاري معمرًا بالغًا للعمر الطبيعي المائة والعشرين، وفي الرضوية أنه البروجردى المعروف بالصدوق من أهل المنبر^(٢)» (فسكت). فإن شخصاً قد وصل به الجهل إلى درجة أنه يُعَدُّ ما جمعه عوام الناس كتاباً يُستند إليه في هكذا أمور ليس أهلاً للمناقشة والحديث معه. وبالجملّة، فكم هو بعيد عن رحمة

(١) أي أن الذين طبعوه زادوا ونقصوا فيه.

(٢) الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢١، ص ٣٢٤.



الله المبدع ذلك الأحق الذي وضع هذه الأباطيل وسن هذه السنة وشارك في تبعاته كل من كتبها ومن قرأها^(١).

• نسبة ما لا يصح:

ونجد غلبة العاطفة على العقل عند البعض من خلال نسبة ما لا يجوز - أو ما لا يناسب - الشخصيات العاشورائية، من قبيل ما يُذكر من نشر نساء بيت النبوة لشعورهن أمام الرجال جزعاً، وكلمات عدم الرضا بالقضاء الإلهي في بعض الأشعار، حتى قيل على لسان العقيلة زينب عَليها السَّلام:

يا عباس منته اللي جبّنتي وييدك يا عزّي ركّبتني
وطول الدرب ما فاركتني ليش هالساعة عفتني ؟
رحت عني يخويه وضيّعني! بعدك بني ميّه ولّتني

بينما نجد أنه لما سألها ابن زياد في مجلسه وبجبروته وقد أحضرت أمامه مع السبايا: (كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟) أجابت: (ما رأيت إلا جميلاً. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتُخاصم، فانظر لمن الفلج

(١) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ١٢٤-١٢٥.



يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة^(١). هذه هي الصورة الحقيقية للعقيلة زينب، لا تلك الصورة التي رسمها الشاعر.

• انتقائية الخطيب:

والقراءة الانتقائية للنصوص العاشورائية قد يكون لهذا السبب أيضاً، فكل ما لا يخدم غرض الخطيب من الإثارة العاطفية يُحذف، ولا يُأت إلا على ذكر الرواية الأخرى الأنسب له. ومثال ذلك خبر مقتل العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالخطباء لا يأتون على ذكر رواية رواية الشيخ المفيد حيث قال في كتابه «الإرشاد»: (واشدد به العطش، فركب المسناة)^(٢) يريد الفرات وبين يديه العباس أخوه، فاعترضته خيل ابن سعد وفيهم رجل من بني دارم فقال لهم: ويلكم حولوا بينه وبين الفرات ولا تمكنوه من الماء، فقال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللهم أظمئه»، فغضب الدارمي ورماه بسهم فأثبته في حنكه، فانزع الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ السهم وبسط يده تحت حنكه فامتلات راحته بالدم، فرمى به ثم قال: «اللهم إني أشكو

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٦.

(٢) المسناة: تراب عال يحجز بين النهر والأرض الزراعية.



إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك»، ثم رجع إلى مكانه وقد اشتد به العطش. وأحاط القوم بالعباس فاقتطعوه عنه، فجعل يقاتلهم وحده حتى قُتل «رضوان الله عليه»، وكان المتولّي لقتله زيد بن ورقاء الحنفي وحكيم بن الطفيل السنبسي بعد أن أُتخِنَ بالجراح فلم يستطع حراكاً^(١). وقال السيد ابن طاووس في كتابه «اللّهوف على قتلى الطّوف» وبعبارات قريبة جداً من عبارة المفيد: (واشتدّ العطش بالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فركب المسناة يريد الضرات، والعباس أخوه بين يديه، فاعترضتهما خيل ابن سعد، فرمى رجل من بني دارم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بسهم فأثبتته في حنكه الشريف، فانتزع «صلوات الله عليه» السهم وبسط يده تحت حنكه حتى امتلأت راحته من الدم، ثم رمى به وقال: «اللهم إني أشكوه إليك ما يفعل بابن بنت نبيك». ثم اقتطعوا العباس عنه، وأحاطوا به من كل جانب ومكان، حتى قتلوه «قدس الله روحه»، فبكى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بكاءً شديداً^(٢).

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) ابن طاووس: اللّهوف، ص ١٠٣.

ومن الواضح أن رواية المفيد وابن طاووس تخالف الرواية الأخرى التي تُذكر عادةً على المنابر والمشهورة بين الناس، والتي جاء فيها: (ولما رأى وحدة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد قتل أصحابه وجملة من أهل بيته قال لإخوته من أمّه: تقدّموا لأحتسبكم عند الله «تعالى» فإنه لا ولد لكم، فتقدموا حتى قتلوا، فجاء إلى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ واستأذنه في القتال. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ له: أنت حامل لوائي، فقال: لقد ضاق صدري وسئمت الحياة، فقال له الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن عزمت فاستسق لنا ماءً، فأخذ قربته وحمل على القوم حتى ملأ القربة. قالوا واغترف من الماء غرفة ثم ذكر عطش الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فرمى بها وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني

وبعدّه لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنون

وتشربين بارد المعين

ثم عاد فأخذ عليه الطريق فجعل يضربهم بسيفه وهو

يقول:

لا أهرب الموت إذا الموت زَقَا

حتى أدارى في المصاليات لقي

إني أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أهاب الموت يوم الملتقى

فضربه حكيم بن طفيل الطائي السنبسى على يمينه

فبراها فأخذ اللواء بشماله وهو يقول:

والله إن قطعتموا يميني إني أحامي أبداً عن ديني

فضربه زيد بن ورقاء الجهنى على شماله فبراها،

فضم اللواء إلى صدره - كما فعل عمه جعفر إذ قطعوا

يمينه ويساره في موة فضم اللواء إلى صدره - وهو يقول:

ألا ترون معشر الفجار قد قطعوا ببغيهم يساري

فحمل عليه رجل تميمي من أبناء أبان بن دارم، فضربه

بعمود على رأسه، فخرّ صريعاً إلى الأرض، ونادى بأعلى

صوته: أدركني يا أخي، فانقض عليه أبو عبد الله كالصقر

فراه مقطوع اليمين واليسار مرضوخ الجبين، مشكوك

العين بسهم مرتثاً بالجراحة، فوقف عليه منحنياً وجلس

عند رأسه يبكي حتى فاضت نفسه، ثم حمل على القوم فجعل يضرب فيهم يميناً وشمالاً، فيضرون^(١).

والسؤال: لماذا يفضل الخطباء هذه الرواية على سابقتها؟ لأن روايتي المفيد وابن طاووس لا تتضمنان عناصر الإثارة العاطفية بالمستوى الذي تتضمنه رواية المقتل... وهذه انتقائية لم تعتمد على معايير علمية، بل جاءت نتيجة الخضوع للعاطفة، لا أكثر، ولو كانت الرواية المنتقاة أقوى سنداً على سبيل المثال لما أشكل عليه، ولكن الأمر ليس كذلك.

• تسطيح الخطاب:

ونجد غلبة العاطفة على العقل عند البعض بحيث يعمل على تسطيح الخطاب العاشورائي بالتساهل في عرض الوقائع دون تثبّت ولا تفكّر. ومثال ذلك نقل رواية امتناع العباس عَلَيْهِ السَّلَام عن شرب الماء حين وصل إلى المشرعة لأنه تذكّر عطش أخيه الحسين وعطش الأطفال والنساء في مشهد يعكس قمة الإيثار والوفاء... بينما يقوم نفس

(١) الأزدي: مقتل الحسين، ص ١٧٩-١٨١.

الخطيب فيقول أن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قاتل ثم وصل إلى
المشرعة وغرف غرفة من الماء.. فَهَمَّ أَنْ يشرب لولا أَنْ
نودي: يا حسين، أَتَشْرَبُ الماءَ وقد هجموا على الخيام؟ أي
أنه لم يتذكر عطش الأطفال ولا النساء على خلاف أخيه
العباس الذي كان أشدَّ إثارةً من إمامه!

• السبب وراء طغيان العاطفة:

ويبقى السؤال: لماذا يتغلب البعد العاطفي اليوم ويغطي
على المشهد العام لإحياء المناسبة على حساب البعد
الفكري والعقلي؟

١. قدسية المنبر الحسيني وعنوان الشعائر الحسينية
مما ينسحب على الخطيب وقاريء العزاء والمدّاح وصاحب
المجلس ... إلخ. وهذه القدسية تجعل من الإنسان الذي
يعيش قوة العاطفة في أيام إحياء الذكرى لا يتجرأ على
تقييم ما يُقال أو يُفعل باسم المجلس الحسيني، والشعيرة
الحسينية.

٢. ترسخ قدسية شخصيات النهضة الحسينية وارتباطها
بالغيب من خلال مرتبة الإمامة أو ما دونها، الأمر الذي

يجعل من السهل قبول ما يُنسب إليها مما لا يُقبل بحق غيرها من الشخصيات. فخطابنا الديني غير الدقيق - أحياناً - في استعمال المصطلحات، وخلط المفاهيم، وعدم التدقيق في النصوص، أدّى إلى خلق عقلية يسهل عليها قبول أية قصة أو أي نص يتضمن ما يُدعى أنه معجزة أو كرامة، على الرغم من أن ذلك خلاف الأصل في الحياة.

وإلى هذا أشار المحقق الشيخ محمد هادي الغروي حيث قال إن المعجزة: (مفارقة للنظام الطبيعي، فإذا أردت أن تُثبت شيئاً مختلفاً مع النظام الطبيعي فمن المنطقي أن تكون خطواتك هذه أكثر صعوبةً وعُسرًا مما أردت أثبات شيء غير خارق منسجم مع الطبيعة. إذاً المعجز لا يثبت إلا بدليل قطعي أو مقارب للقطعي، أي المتواترات أو ما يمكن الاعتماد عليه من النصوص المستفيضة. وهذا معناه أنه لا يمكن الاعتماد في مثل المعاجز على أخبار الآحاد)^(١). وبالتالي، فإنّ صياغة العقل بهذه الصورة يجعل المعجزة بالنسبة إلى شخصيات النهضة الحسينية

(١) مجلة نصوص معاصرة، ع ٢٠، ص ١٢٧.

بكل قدسيّتها في النفوس كالحالة الأصليّة التي ترافقهم في كل آن، وفي كل مكان، وتظهر إلى العلن منهم بعيداً عن ضوابط الإعجاز التي تحدّث عنها المحقّقون، فلا يصعب عليها تصديق ما يُقال مما لا يقبله العقل بحق غيرها من الشخصيات.

٣. اتّباع العاطفة أيسر من اتّباع العقل، لأنّ العقل يفرض التريّث في اتّخاذ القرار، ويتطلّب جهداً أكبر، ويُلزم صاحبه بالتمييز بين الأمور، على خلاف العاطفة التي تتماشى مع طبيعة الإنسان العجولة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(١)، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾^(٢).

٤. الجو العام الغالب وتأثيره على المجموع، وعلى من لم يحسم أمره، وعلى من يجهل وظيفته في إحياء المناسبة، فهل هو مع الذين يريدون عاطفة محضة، أم مع الذين يريدون العاطفة والعقل معاً. فلا شك أن حماسة الروح الحسينية كبيرة جداً في أجواء الإحياء العاشورائي، الأمر

(١) سورة الأنبياء: ٣٧.

(٢) سورة الإسراء: ١١.

الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويكون كالتيار الذي يجرف ما أمامه، فيدخل الغالبية في الأجواء المستغرقة في العاطفة مهما بلغت من شدة وامتداد.

٥. من طبيعة العاطفة أن لها قوة دافعية عظيمة حين تتأجج، على خلاف العقل الذي يميل إلى التريث.. ومن طبيعة التفاعل مع الجو العاطفي الملهب خلال إحياء الذكرى العاشورية أن يتناسب مع القوة الجارفة للعاطفة المتأججة. هذا التناغم يدفع بالإنسان إلى الخضوع للعاطفة بشكل كبير، وعلى حساب العقل، وهو ما يجعله يقبل ما تُمليه عليه ويكون طوعاً لها، متمرداً على عقله.

٦. الأجواء العاشورية المليئة بالحزن والبكاء مناسبة لتفريغ شحن العواطف السلبية المخترنة في النفس والناشئة عن مشكلات الحياة وضغوطاتها.

وعندها.. تمتزج العواطف المرتبطة بالذكرى مع العواطف المرتبطة بالحياة لتبرز في صورة عاطفة جيّاشة، لا تدع مجالاً للعقل لكي يزن الأمور، أو يضبط الأقوال والتصرفات وردود الأفعال.

٧. المبالغة في توظيف بعض المنابر للروايات المشجعة على البكاء والارتباط العاطفي بالمناسبة.

البكاء على مصاب أهل بيت النبي الأكرم ﷺ سنة سنّها هو ﷺ بعد استشهائ عمّه حمزة رضي الله عنه في غزوة أحد، فقد روى ابن كثير أنه: (مرّ رسول الله ﷺ بدار بني عبد الأشهل^(١) فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال: «لكن حمزة لا بواكي له». فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهن أن يتحرّمن ثم يذهبن فيبيكين على عم رسول الله ﷺ. فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن بعض رجال بني عبد الأشهل قال: لما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهنّ في باب المسجد يبيكين فقال: «ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن».... وقد أسند الإمام أحمد^(٢) فقال: حدثنا زيد بن الحباب حدثني أسامة بن زيد حدثني نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد فجعل نساء

(١) من الأنصار، فرع من الأوس، ومنهم الصحابي الجليل سعد بن معاذ.

(٢) أي ذكر رواية مسندة.



الأنصار يبيكين على مَنْ قُتِلَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَكِنْ حَمْزَةٌ لَا بَوَاكِي لَهَا». قَالَ: ثُمَّ نَامَ فَاسْتَبْهَ وَهُنَّ يَبْكِينَ. قَالَ: فَهِنَّ الْيَوْمَ إِذَا يَبْكِينَ يَنْدُبْنَ حَمْزَةً. وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ^(١) ^(٢). وَالْعِبَارَةُ الْأَخِيرَةُ تَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ فِي الْبَدَأِ بِالْبَكَاءِ عَلَى عَمِّ النَّبِيِّ سَيِّدِنَا حَمْزَةَ قَبْلَ الْبَكَاءِ عَلَى مَوْتَاهُمْ فِي مَنَاسِبَاتٍ أَعْقَبَتْ غَزْوَةَ أَحَدٍ، قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: (فَهُنَّ إِلَى الْيَوْمِ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنَ الْأَنْصَارِ بَدَأَ النِّسَاءُ فَيَبْكِينَ عَلَى حَمْزَةٍ ثُمَّ يَبْكِينَ عَلَى مَيِّتِهِنَّ) ^(٣).

وهكذا فَإِنَّ الْبَكَاءَ عَلَى مَصَابِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ وَالْمَنْدُوبَةِ الَّتِي وَرَدَتْ عِدَّةُ نصوصٍ فِي التَّشْجِيعِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ مَا رَوَاهُ الصَّدُوقُ بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: (كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: أَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَمْعَةً حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ

(١) أي خبر صحيح على وفق شروط وقواعد مسلم في تصحيحه للأخبار والأحاديث.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٩٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٤٤.



بَوَّاهُ اللَّهِ بِهَا فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَسْكُنُهَا أَحْقَابًا، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ
دَمَعَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ فَيُنَازِلُ أَذَى مَسْنَا مِنْ
عَدُونَا فِي الدُّنْيَا بَوَّاهُ اللَّهِ بِهَا فِي الْجَنَّةِ مَبُوءًا صَدَقَ، وَأَيُّمَا
مُؤْمِنٍ مَسَّهُ أَذَى فَيُنَازِلُ فَمَدَعَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ
مِنْ مَضَاضَةٍ مَا أُؤْذِيَ فَيُنَازِلُ صَرَفَ اللَّهِ، عَنْ وَجْهِهِ الْأَذَى
وَأَمَّنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَخَطِهِ وَالنَّارِ^(١).

كَمَا وَلَا شَكَّ فَإِنَّ إِبْكَاءَ الْآخِرِينَ عَلَى مَصَابِ أَهْلِ
الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِالشَّعَارِ وَالْمَرَاثِي وَذَكَرَ تَفَاصِيلَ الْأَحْدَاثِ
الْمُفْجِعَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَمْدُوحَةِ، وَمِنْ أَسْبَابِ التَّقَرُّبِ إِلَى
اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَكَانَ شَائِعًا فِي زَمَنِ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَضْمُونُ فِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ، مِنْ قَبِيلِ مَا جَاءَ
فِي «كَامِلِ الزِّيَارَاتِ» عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ
قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمَّادِ الْبَصْرِيِّ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَرْقَدِ جَدِّهِ
الْحُسَيْنِ: (بَلَّغْنِي أَنْ قَوْمًا يَأْتُونَهُ مِنْ نَوَاحِي الْكُوفَةِ وَنَاسًا
مِنْ غَيْرِهِمْ، وَنِسَاءً يَنْدُبْنَهُ، وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ،
فَمِنْ بَيْنِ قَارِيءٍ يَقْرَأُ، وَقَاصٍّ يَقْصُصُ، وَنَادِبٍ يَنْدُبُ، وَقَائِلٍ

يقول المراثي، فقلت له: نعم جعلت فداك، قد شهدت بعض ما تصف، فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس مَنْ يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدونا مَنْ يطعن عليهم - من قرابتنا وغيرهم - يهدرونهم^(١) ويُقَبِّحون ما يصنعون^(٢). بالطبع لم يكن لَمَنْ يقوم بهذا الدور اسم أو عنوان خاص كما عليه الحال في هذه الأيام، حيث يُطلق عليهم عنوان «قراء العزاء» و«الخطباء الحسينيين» وأمثال ذلك، وبحسب المحدث النوري فقد بدأ ذلك بعد سنة ٩٠٠هـ، قال: (ولم يكن لهذا الصنف من المؤمنين الذين يعملون على الإنشاد والإبكاء اسم مخصوص إلى زمن العالم الفاضل المتبحر الألمعي المولى حسين كاشفي الذي أُلّف في حدود سنة ٩٠٠هـ كتاباً سَمّاه «روضة الشهداء» فرغب الناس في قراءته في مجالس العزاء والمصيبة. وبما أن هذا الكتاب كان على درجة عالية من التهذيب والفصاحة، لم يكن بمقدور عامة الناس قراءته والاستفادة منه، فظهر

(١) يهدرونهم: يُبطلون دمهم، وفي بعض النسخ: يهزون بهم أي يسخرون بهم ويؤذونهم بالردىء من القول.
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات، ص ٥٣٩.



بينهم جماعة من المتعلمين الذين أتقنوا قراءته وراحوا يتلون مجالسه في مجالس العزاء حتى عُرِفوا في ما بعد «بقراء الروضة»^(١) نسبةً إلى كتاب «روضة الشهداء» هذا. ثم تطور الأمر شيئاً فشيئاً فصاروا يستعينون بكتب أخرى غير كتاب الروضة، ولكن الاسم لم يفارقهم، وما زالوا إلى اليوم يُعرفون بذات الاسم. وقد علا مع الزمن شأن هذه الطائفة من المتعلمين وصاروا يهيئون لأجل إبقاء الناس المقدمات المختلفة من قصص وحكايات وأشعار وفصائل ورواجز ومسائل فرعية وغير ذلك إلى أن صارت قراءة العزاء فناً مستقلاً قائماً بذاته^(٢).

إلا أنه لا بد من التنبيه على أن نيل الأجر والثواب من عند الله عَزَّجَلَّ على إبقاء الناس على مصاب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يجب أن يكون مقروناً بالإخلاص والصدق. ومع فقدان قاريء العزاء لأي واحد من هذين الشرطين تذهب أتعابه أدراج الرياح وتصبح أعماله كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمان ماءً، والمشقة التي تحملها هباءً دون فائدة تُرجى،

(١) بالفارسية: روزه خون، والضاد تلفظ بالزاي فتصبح «روزه خون».

(٢) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ٣٢.

وَيُمَحَى اسْمُهُ مِنْ دِيوَانِ خُدَّامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ لَرُبَّمَا لَا يُكْتَبُ اسْمُهُ فِيهِ أَصْلًا، كَمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الْمَحْدَثُ النُّورِيُّ مُضِيفًا: (فَعَلَى قَارِيءِ الْعِزَاءِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ وَيُنَالِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ وَالثَّوَابِ الْخَالِدِ وَالْكَرَامَاتِ الَّتِي لَا مَنَّةَ فِيهَا وَلَا أَذَى وَالتِّي جَعَلَتْ لِهَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ يَهَيَّيَءَ نَفْسَهُ وَيَعِدَّهَا بِحَيْثُ لَا يَبْدَأُ فِي الْعَمَلِ بِهَذَا الْفَضْلِ قَبْلَ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ بِنَحْوِ الْيَقِينِ أَوْ الْإِطْمِئْنَانِ، وَأَنْ يَمْتَحِنَ نَفْسَهُ لِيَعْلَمَ هَلْ هُوَ حَائِزٌ عَلَيْهِمَا أَوْ لَا، وَيُوزَنُ نَفْسَهُ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ الَّذِي هُوَ فِي كَفِّ الْعُلَمَاءِ الرَّاسَخِينَ وَأَمْنَاءِ الشَّرْعِ الْمُبِينِ، لِيَرْتَاحَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِ النَّفْسِ الَّذِي كَثِيرًا مَا يَصَوِّرُ الْبَاطِلَ بِصُورَةِ الْحَقِّ، وَيُلْبِسُ لَنَا الْخَطَأَ لِبَاسَ الصَّوَابِ، وَكِي لَا يَرْمِي نَفْسَهُ فِي الْهَلَاكِ كَالْأَعْمَى)^(١).

ويُضَافُ إِلَى مَا سَبَقَ - فِي سِيَاقِ بَيَانِ أَسْبَابِ طُغْيَانِ الْبُعْدِ الْعَاطِفِي فِي عَرْضِ الثَّوْرَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ - أَنَّ الْمَبَالِغَةَ فِي تَوْضِيفِ

(١) النُّورِيُّ: اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، ص ٣٤.



هذه النصوص الداعية إلى البكاء وتكرارها يجعلها تتحوّل إلى المعلم الأبرز والمؤثر الأكبر في الإحياء العاشورائي على حساب دَوْر الفكر والتحليل والاعتبار والإسقاط على الواقع وبناء المستقبل، مع التأكيد على أنني لست هنا ضد البكاء والحزن والعبرة في حدّ ذاتها، كيف والحال أنها سنّة نبوية، بل ضد الاستغراق في ذلك على حساب الفكرة والعبرة.

• الحزن تعبير إنساني؛

إننا عندما نعود إلى كتاب الله عزَّجَلْ فسنجدّه يدفع المؤمنين لاستلھام العبرة من الموقف العاطفي السلبي الذي عمّ مشهد معسكر المسلمين بعد غزوة أحد، إذ قال: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوفُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمًّا بِغَمٍّ لَّكِيلاً تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فقد تهيج الانفعالات والعاطفة «السلبيّة» حُزناً وألماً على مصاب ما، ويشعر معها الإنسان بشدّة الألم ومرارة فقدان الأحبة، ولربما إلى حدّ الصدمة، إلا أن الله عزَّجَلْ يريد للإنسان

المؤمن أن لا يسقط أمام هذه العواطف بحيث يستغرق فيها،
وتُحيط به فتسلبه إرادته وتفكيره.

الحزن انفعال إنساني نبيل.. ودموع الحزن تعبير رائع!
ولكن لا بُدَّ للإنسان من أن يجعل ذلك كله في الاتجاه
الإيجابي الذي يثير في النفس المرارة لتدخل في هذا الجوِّ
في وعي التجربة، لاستخلاص العبر منها، من أجل الدخول
في تجربة جديدة. عندها، يتحوّل هذا الغمّ الذي يمثّل ضيقاً
في الصدر، وألماً في الإحساس، إلى وعي وبصيرةٍ بكلِّ
مفردات القضية، من أجل أن يتفهم المؤمن طبيعة ما جرى
في مقدماته وفي تفاصيله وفي نتائجه. فإنَّ كانت التجربة
المريّة تجربتي الشخصية، فالله يريد لي أن أبحث عن
مواقع الصواب ومواطن الخلل، فيرتفع الحزن على الخسارة
ليحل محله الوعي والأمل بانتظار الربح في المستقبل الآتي.
وإنَّ كانت التجربة المريّة هي تجربة الآخرين، فالله يريد
لي أن أدرس تلك التجربة لأنتزع منها العِظات، لا أن أذوب في
الحزن والغم على أصحابها، وأنسى الرسالة التي حملوها،
والتجربة التي خاضوها، والعِبَر التي خلفوها.



فاستخف قومه فأطاعوه



﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ، فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾^(١).



تأتي هذه الآيات لتتحدث عن فصل من فصول المواجهة بين فرعون والنبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتحكي العقلية التي يحكم بها الطغاة، والعقلية التي ينظر فيها المحكومون لطاغيّتهم.

فالآيات القرآنية التي سبقت هذا الفصل تتحدث عن الآيات «المعجز» التي توالى من أجل هزّ حالة الجمود والاستكبار العقلي والعاطفي عند فرعون دون جدوى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ، وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١).

• آية أم معجزة؟

ولنلاحظ أن القرآن الكريم لم يستعمل ولا مرة واحدة مصطلح «معجزة»، بل مصطلح «آية»، وهو أولى بالاستعمال، لأنّ في كلمة آية دلالة على الهداية، والهداية هي غاية الدين والرسالات السماوية، بينما تتضمن كلمة «معجزة» معنى الغلبة والقهر، وهي ليست في حدّ ذاتها غاية للرسالات



السماوية، ولو كانت كذلك لاستمرت الآيات في النزول، ولكن الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وحيث لم تؤت ثمارها في الهداية فلماذا يُنزل الله المزيد منها؟ ومثال عدم تأثر الناس بالآيات وتكذيبها: ﴿وَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(١).

ولعل استعمالنا لكلمة «معجزة» بدلاً عن «آية» جاء نتيجة الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات العربية النصرانية في العراق الشام وغيرهما، والتي كان يكثر استعمال هذا المصطلح في ثقافتها واستعمالاتها اللغوية اليومية، فابتعد المسلمون عن المصطلح القرآني تدريجياً حتى تركوه، واستعملوا المصطلح النصراني البديل من دون رعاية للفرق الذي ذكرناه مسبقاً.

ولكي يكون الأمر آية، لابد وأن يفوق قدرات البشر، وأن يكون واضحاً لا لبس فيه، وأن يُثبت مصداقية صاحب الآية كما هو الحال في آية المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحياء الموتى بإذن الله، أو ينقذه من الموت كما هو الحال



في آية الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنْقَاذِهِ مِنَ النَّارِ، أَوْ يَتَحَدَّى بِهِ
الْآخَرُونَ بِغَرَضِ هِدَايَتِهِمْ كَمَا هِيَ آيَةُ عَصَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
أَوْ لِلتَّخْوِيفِ بِغَرَضِ رَدِّ أَعْدَاءِ الرِّسَالَةِ أَوْ فَتْحِ عُقُولِهِمْ
لِلإِسْتِمَاعِ إِلَى كَلِمَاتِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، كَمَا هِيَ آيَاتُ التَّخْوِيفِ
الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى الْكَلِيمِ مُوسَى وَالتِّي حَمَلَتْ فِي طَيَاتِهَا الْعَذَابَ
بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ مَعَانِي الْأَلَمِ وَالْخَوْفِ دُونَ أَنْ يَصِلَ ذَلِكَ إِلَى
حَدِّ الْإِفْتَاءِ وَالْإِهْلَاكِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ
وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(١). هكذا كانت ردود أفعالهم ما بين استهزاء
واستكبار وإجرام قبل وبعد كل مرّة تأتي فيها الآية الأليمة.

• عناد واستكبار واستغفال:

فقد كانوا وهُم في قَمَّةِ الاعتراف بأنَّ ما يجري لهم له
علاقة بموقفهم من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّ قُوَّةَ غَيْبِيَّةِ هِيَ الَّتِي
تُنْزِلُ بِهِمْ هَذَا الْعَذَابَ، وَيَطْلُبُونَ مِنْ مُوسَى الْخُلَاصَ، إِلَّا
أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا كَانُوا يَكَابِرُونَ وَيَعُودُونَ لِمُتَكَبَّرِهِمْ: ﴿وَقَالُوا
يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ،



فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١﴾ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٢﴾ .

• ذاكرة السمكة :

إلا أنَّ توالي تلك الآيات - بما فيها من عذاب - ترك أثره على قناعات الناس، ولربما على مواقف بعضهم، ولذا فإننا نشاهد فرعون ينادي قومه طالباً - من جديد - الثقة بموقعه ومركزه، بعد أن اهتزت صورته في نفوسهم. وكأنه يعرف أن ذاكرة الناس كذاكرة السمكة!

فها هو يعود من جديد ليستشهد بما لديه من ملك وقوة وسلطان في مقابل الحالة المادية البسيطة التي كان يعيشها موسى على المستوى المادي، معتبراً ذلك دليلاً على أنه على حق، وموسى على باطل: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا

(١) سورة الزخرف: ٤٩-٥٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٤-١٣٥.



قَوْمَ الْإِسْ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي
 أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١﴾. ثم يطلب من الناس أن يقارنوا بين
 نسبه ونسب موسى، وبين ثيابه وثياب موسى، وبين قصوره
 وببيت موسى، وبين الأبهة التي يعيشها وبين حالة موسى،
 وبين الكاريزما التي يملكها وبين ضعف موسى في النطق:
 ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٢).

ثم يتمادى في استغفال الناس حين يعتبر أن ضعف الحالة
 المادية لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل على عدم ارتباطه بالغيب! لأنه
 لو كان عزيزاً عند الله لألبسه الذهب: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
 أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾، أو لكان الله قد أرسل إليه ملائكة تظهر
 عياناً للناس فتكون في خدمة موسى تماماً كالخدم والرجال
 الذي يحيطون به ليعخدموه ويسهروا على راحته، وليكون ذلك
 دليلاً على المدد الغيبي وارتباط موسى حقاً بالله ﴿أَوْ جَاءَ
 مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٣).

وفعللاً كانت ذاكرة الناس كذاكرة السمكة! فقد نسوا

(١) سورة الزخرف: ٥١.

(٢) سورة الزخرف: ٥٢.

(٣) سورة الزخرف: ٥٣.



كل تلك الآيات المؤلمة، وانسحقوا أمام كلمات فرعون الذي تلاعب بعقولهم إذ خاطبهم بالمنطق الذي يعرفونه، وبالمعايير التي يقيمونها في الحكم على الأمور. فالمقوّمات الخارجية للشخصية في ما يملكه الفرد من مالٍ وجاهٍ وقوّة هي الأساس عندهم في التقييم، لا في ما يملكه من كفاءاتٍ فكريةٍ وروحيةٍ وعمليةٍ. ولذلك خضعوا للأفكار والمقارنات التي أطلقها فرعون، وصدّقوا كلامه، وعادت ثقتهم به إلى المستوى الذي صاروا فيه طوع أمره ونهيه. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾^(١). لماذا؟ لأنهم همج رعا، لا يملكون فكراً يضبط لهم مواقفهم ويحدّد لهم مواقعهم، وبتعبير الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (هَمَجُ رَعَا أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ)^(٢).

• سياسة مقصودة:

وكونهم همج رعا هو نتاج سياسة يمارسها الطفافة،

(١) سورة الزخرف: ٥٤.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، خ ١٤٧.



وذلك بأساليب متنوعة، من بينها عزل الناس عن الحقائق وسبل المعرفة، والتوجيه المعلوماتي وفق أجندات معيّنة، وإشغالهم بمتطلبات الحياة وبالملهيّات، والإنعام عليهم قليلاً من حين لآخر، واستعمال القبضة الحديدية المرعبة.

• عالم الطفيليات الغريب:

هذه الصورة المأساوية للشعوب قريبة مما يجري في عالم الحشرات والكائنات الحية ! فلدى بعض الطفيليات Parasites القدرة على التحكم في الأدمغة والأجهزة العصبية لكائنات حيّة أخرى وبصورة مذهلة ومتنوّعة تسلبها الاختيار، وتزوّدّها بما تشاء من معلومات تجعلها تحت صوعها وسيطرتها.

من بينها الفطر الطفيلي الكورديسيبيس Cordyceps أو Zombie Fungus الذي يغزو حشرة معينة - ولكل نوع من الحشرات نوع خاص من هذه الطفيلي - فيخترق جسم النملة مثلاً، ويدخل إلى جهازها العصبي ومن ثم دماغها، فيسيطر عليها ويوجهها، فتفقد السيطرة على قراراتها، وتعمل بما يُمليه هذا الفطر عليها، فيوحي لها بأمر، ويحرّكها أو



يجعلها ساكنة كما يريد، وهو يتغذى على جسدها في الأثناء إلى أن يحولها إلى جثة هامة في الوقت الذي يكون فيه هذا الفطر قد نما وكبر وارتفع خارجاً من رأس النملة إلى الأعلى في هيئة قرن طويل.

وهناك نوع من القشريات الطفيلية الصغيرة باسم ساكيولينا *Sacculina* تغزو إنائه جسد السرطان «القبب» وتعيش فيه لتتكاثر داخله. فإن صادف أن كان السرطان ذكراً، تقوم أنثى الساكيولينا بالسيطرة على جهازه العصبي وتوحي إليه أنه أنثى، ويبدأ جسده بتكوين عضو جنسي أنثوي يستقبل ذكر الساكيولينا، فيكون واسطة في تلقيح الأنثى الموجودة في داخل جسد السرطان، ثم تبيض فيقوم السرطان الذكر المتحول برعاية بيض ذلك الطفيلي وكأنه الأم إلى أن تفقس وتتطلق لتستمر دورة حياتها من جديد!

ومن الديدان الطفيلية ما يقتحم جسد نوع معين من الأسماك، فيتغذى على جسدها من الداخل، فيكبر ويسيطر على جهازها العصبي، فيغير لونها من اللون الذي يمكنها من التخفي إلى اللون الوردي الفاقع الذي يمكن الطيور من



رؤيتها من بعيد، كما ويدفعها إلى الاقتراب من سطح الماء بدلاً من البقاء في مستويات منخفضة، لبيسر على الطيور اصطياها. فإذا تمكّن الطائر من ذلك، انتقلت هذه الدودة إلى جسد الطير وتكاثرت فيه، ومن ثمّ تخرج مع مخلفاته منتشرة في أكثر من مكان، حيث يمكنها أن تعيد دورة حياتها في أجساد أسماك أو كائنات حية أخرى.

هكذا تغزو هذه الطفيليات أجساد كائنات حية فتسيطر على أدمغتها وأجهزتها العصبية وتحوّلها إلى وسائل لتحقيق غاياتها وتجعلها طواعية في خدمتها.. صورة قريبة جداً لما يفعلها الطفلة - كفرعون - مع الشعوب.

• إدارة الفهم:

تأسس في العقود الأخيرة مجال علمي تحت عنوان: Perception Management أي «إدارة الفهم»، والذي عرّف بأنه: «نشر لمعلومات أو حذف لمعلومات من أجل التأثير على تفكير الجمهور والحصول على نتائج يستفيد منها أصحاب المصالح»، وكانت وزارة الدفاع الأمريكية هي البادئة في إنشاء هذا المجال العلمي لأغراض عسكرية ومخابراتية، ثم

تطوّر الأمر ليُوظَّف في مجالات عديدة اقتصادية وغيرها.

ولأن النشر والحذف يتطلّبان أساليب دقيقة ومعرفة تامة بعلم النفس والسلوك والإدراك، قام الباحث روبرت بروكتور Robert Proctor بصياغة ما يُعرف بعلم الجهل Agnotolgy وهو العلم الذي يدرس صناعة ونشر الجهل بطرق علمية رصينة. فعندما سُرِّبت وثيقة من أرشيف إحدى شركات التبغ الشهيرة في سنة ١٩٧٩، تبين لهذا الباحث أن أبرز استراتيجية لنشر الجهل التي اعتمدتها الشركة كان عن طريق إثارة الشكوك في البحوث العلمية التي تربط التدخين بالسرطان.

ومن حينها انطلق لوبي التبغ في الولايات المتحدة لرعاية أبحاث علمية مزيفة هدفها تحسين صورة التبغ اجتماعياً ونشر الجهل حول مخاطره.

الجهل في هذه الحالة ليس انعدام المعرفة فحسب، بل هو «مُنْتَج» يتم صنعه وتوزيعه لأهداف معيّنة، غالباً سياسية أو تجارية. وحسب أساسيات علم الجهل فإنّ التضليل يستند على ركائز ثلاث:



١- بثّ الخوف والرعب لدى الآخرين، والذي قد يتم من خلال صنع أعداء وهميين لتحشيد الرأي العام، أو بالتخويف من القدر المظلم إذا لم يشاركوا في هذه المعركة وتلك.

٢- إثارة الشكوك، ويتم توظيفه غالباً في القطاع التجاري والاقتصادي، وهذا بالتحديد منهج الكثير من الشركات. فبعد هبوط مبيعات إحدى شركات المشروبات الغازية بنسبة ٢٥٪، بدأت الشركة بدفع ما يقارب ٥ ملايين دولار لباحثين أكاديميين لتنفيذ مهمة تغيير فهم المجتمع حول أسباب السمنة، وذلك بتقليل دور المشروبات الغازية في انتشار السمنة وتوجيه اللوم إلى عدم ممارسة التمارين الرياضية!

٣- صناعة الحيرة، فكمّثرة المعلومات المتضاربة تصعب من اتخاذ القرار المناسب، فيدخل الفرد في دوامة من الحيرة، ويزيد العبء النفسي والذهني عليه، فيلوذ بقبول ما لا ينبغي القبول به تخلصاً من هذا العبء، وهذه تحديداً هي الغاية!

كتب بروكتور: (الصراع يدور ليس فقط حول وجود التغير المناخي، ولكن حول ما إذا كان الله قد خلق لنا



الأرض للاستفادة منها، وما إذا كان للحكومة الحق في وضع القوانين المنظمة للصناعة، وما إذا كان نشطاء البيئة بحاجة إلى دعم، وهكذا. الصراع ليس فقط حول الحقائق، ولكنه يتركز حول ما يدور في فلك هذه الحقائق ويتفرع منها^(١).

ومع التطور الهائل في نقل المعلومة، باتت صناعة الجهل والتضليل سلعة يومية تُنشر وتُساق على الجمهور، من قبل حكومات وشركات وأصحاب نفوذ. والصمود أمام كل هذه القوى يتطلب جهوداً ذاتية ووعياً مستقلاً يبحث عن الحقيقة بعيداً عن العاطفة والأمنيات. يقول ديفيد داننغ المختص في علم الجهل: (في الوقت الذي يستفيد فيه بعض الأذكاء من المعلومات المتوفرة على شبكة الإنترنت، فإن كثيراً منهم يقعون في براثن الخداع حين يصدقون ما يقوله أصحاب الخبرات المزيفة. القلق الذي أشعر به ناتج ليس عن عدم قدرتنا على اتخاذ قرار، ولكن من أنه أصبح من السهل جداً أن نتخذ قراراتنا. ينبغي أن نستشير الآخرين



أكثر بكثير مما نتخيل. قد لا يكون الآخرون كاملي الأوصاف، لكن غالباً ما تكون آراؤهم عاملاً مساعداً على تصحيح جوانب القصور لدينا^(١).

ومن هنا نجد أن الله يؤكد على أن الناس يتحملون مسؤولية حالتهم الهمجية الرعوية هذه، وبأيديهم أن يغيروها، فالخلل موجود فيهم أيضاً، والإجراءات التي يقوم بها المستكبر لا تعفيهم من المسؤولية، ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٢). فالمستكبر لا يملك أن يستخفهم إلا وهم فاسقون، أقصوا عقولهم ولهثوا وراء شهواتهم، وانشغلوا بالماديات، وأعطوا كل القيمة لها، لا للعلم والمعرفة والبصيرة وكمالات الروح والأخلاق.

أي أن الإيمان الحقيقي الذي يخلق حالة من الارتباط بالله سبحانه يعدّ من عوامل الانفلات من هذه الدائرة الهمجية الرعوية.. حالة الاتباع الأعمى. فالإيمان قرين الوعي والمعرفة والفكر والبصيرة.

(١) bbc-news-xa-yahoopartner.tumblr.com

(٢) سورة الزخرف: ٥٤.



• السيرة الأموية :

والكثير مما ذكرناه آنفاً من ملامح الاستكبار والإجرام الفرعوني نجده ماثلاً في السيرة الأموية ونهجها الطاغوتي الذي واجهه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مع نفرٍ قليل من أنصاره. وصور الخذلان، وتشبيط العزائم، والانسحاب من المواجهة، والانقلاب على الأعقاب، والركون إلى وعود الحاكم المستكبر، والخوف من بطشه، والهمجية الرعوية، كلها لم تأت من فراغ بل هي نتاج سياساتٍ وعملٍ ممنهج، قام به الأمويون، وحصدوا ثمرته في يوم عاشوراء، حتى أننا نجد سيد شباب أهل الجنة في أقل من مائة من أهل بيته وأنصاره، وتقابل ألوف مؤلفة من الذين عرفوا مَنْ هو الحسين، وجهِد هو عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُعرِّف مَنْ جَهِلَهُ، وطالبهم بالرجوع إلى الشهود من صحابة رسول الله ﷺ، وبتحكيم فطرتهم وعقولهم، ليصلوا إلى حقيقة أنهم لن يخرجوا من هذه المواجهة إلا بالخسران المبين، والخزي في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.. ولكن يزيد استخفَّ قومه فأطاعوه، وارتكبت أيديهم جريمةً سيبقى التاريخ شاهداً



عليها وعليهم ولتحاكمهم الأجيال مهما تعاقبت، فلا هم يملكون العذر في ما اقترفوا، ولن يملك الإنسان الذي تحرَّر من رِبة الطاغوت أن يَغفر لهم.

• سفير الحسين:

وهكذا هي مأساة سفير الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلم بن عقيل الذي واجه خذلان القوم الذين وقعوا أسرى التلاعب في أدمغتهم، والدعاية المضلَّة، والركون إلى وعود الحاكم المستكبر، والخوف من بطشه، والهمجية الرعوية، فكانت النتيجة أن وجد مسلم نفسه وحيداً في بيت امرأة لا يعرفها.. وليتكالب عليه رجالات ابن زياد ويأخذونه مصاباً بعد قتال عنيف، حتى إذا كان أمام ابن زياد وقف وقفة مَنْ لا يهاب الموت.. وجاءت لحظة الحقيقة.. اللحظة التي يتمناها الأبطال أن لا يكون موتهم على الفراش.. بل قتلاً في سبيل الله.. وكان لمسلم ما تمنى حيث أٌصعد إلى أعلى القصر، وهو في ذلك يُسبِّح الله عَزَّجَلَّ ويستغفره وهو يقول: «اللهم احكِّم بيننا وبين قوم غرَّونا وخذلونا»، فلم يزل كذلك حتى ضُرب عنقه، وأتبع جسده رأسه وهوى من أعلى القصر.



الشهادة

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَجَعَلْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

الشهادة في اللغة: الإخبار، كما يجري في المحاكم على

سبيل المثال.



والحضور، كأن يحضر شخص ما عقد نكاح فيكون شاهداً عليه.

والعلم، كما جاء في قوله عزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِئَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(١).

والكون أو الوجود الظاهر بالنسبة إلينا: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٢).

واليمين، كما فُسِّرَ في قوله عزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣)، فالشهادات الأربع تعني أداء القسم واليمين أربع مرات.

(١) سورة البقرة: ٢٨٣.

(٢) سورة الرعد: ٨-٩.

(٣) سورة النور: ٦-٧.



والشهيد في اللغة: مَنْ يُوَدِّي الشهادة، والحاضر، والذي لا يغيب عن علمه شيء.

وكما هو واضح فإن التعاريف السابقة ليست لها علاقة مباشرة بالموت في سبيل الله، أو الموت لهدف آخر أو لسبب آخر من قبيل الغرق أو الاحتراق أو الموت عند الولادة كما في بعض الروايات.. بل هي على عكس ذلك.. لأنَّ الموت غياب وليس بحضور.

• الاستعمال القرآني:

استُعملت كلمة «شهد» - باشتقاقاتها - في القرآن الكريم: ١٥٥ مرة في ١٢٣ آية، وذلك من قبيل الآيات التي ذكرتها في الأسطر الماضية، ومن قبيل قوله عزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١)، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

(١) سورة النور: ٤.

(٢) سورة النساء: ٤١.



وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾.

وفي كل الموارد القرآنية لم تُستعمل اشتقاقات كلمة «شهد» في معنى القتل في سبيل الله، ولا المقتول في سبيل الله.. أو في أي سبيل آخر. بما في ذلك الآية الأخيرة والتي قال العلامة الطباطبائي في تفسيرها: (وأما الشهداء - وهم شهداء الأعمال - فليؤدوا ما تحمّلوه من الشهادة) (٢)، وقال في موضع آخر: (فالشهداء شهداء الأعمال) أي الذين يشهدون على أعمال الناس في الآخرة (وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يُعهد استعماله في القرآن، وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية) ثم أضاف مؤيداً كلامه: (على أن قوله: ﴿وَيَتَّخِذْ﴾ أيضاً لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملائمة، فلا يقال: اتخذ الله فلاناً مقتولاً في سبيله وشهيداً كما يقال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، واتخذ الله موسى كليماً، واتخذ الله النبي شهيداً يشهد على أمته يوم

(١) سورة الزمر: ٦٩.

(٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ٢٩٦.

القيامة)^(١) فمن أين جاء استعمالنا لهذه الكلمة في هذا المعنى؟

نعم، في بعض الأحاديث المروية عن النبي الأكرم ﷺ نجد استعمالاً لهذا المصطلح في هذا المعنى، وذلك من قبيل: (أشرف الموت قتلُ الشهادة)^(٢).

ومن قبيل: (مَن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)^(٣).

وكقوله ﷺ: (ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا، ولو أن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل في الدنيا، لما يرى من فضل الشهادة)^(٤).

وكما روي عن الإمام علي عليه السلام في قوله للنبي ﷺ: (.... قلت: يا رسول الله، أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٢٩.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٨.

(٣) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٥١٦.

(٤) النوري: مستدرک وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣.



اسْتَشْهَد مَنْ اسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَزَنْتَ عَلَى الشَّهَادَةِ،
فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتُ لِي: أَبْشِرْ يَا صَدِّيقُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ
وَرَائِكَ؟^(١).

فَإِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الْمَرْوِيَّاتُ فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِعْمَالَ
كَانَ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، وَلَعَلَّهُ مِنْ وَضْعِ النَّبِيِّ نَفْسَهُ، عَلَى أَنْ
تَوْظِيفَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَمَّ
لِوُجُودِ مَنَاسِبَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ التَّشَابُهِ بَيْنَهُمَا.

• بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالْمَعْنَى:

فَالزَّكَاةُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى النَّمَاءِ
وَالطَّهَارَةِ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِبَادَةِ
خَاصَّةٍ يُقَدَّمُ فِيهَا الْمُسْلِمُ شَيْئاً مِمَّا يَمْلِكُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَوُفْقَ شُرُوطٍ وَطَرِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَحَيْثُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ تُوَدِّي إِلَى
تَطْهِيرِ أَمْوَالِهِ وَنَمَائِهَا كَمَا وَعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ، لِذَا فَقَدْ نَاسَبَ أَنْ
يُطْلَقَ عَلَيْهَا عِنْوَانُ الزَّكَاةِ.

وَكَذَلِكَ فَإِنَّ كَلِمَةَ «كَافِرٌ» مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْكُفْرِ، وَهِيَ لَفْظَةٌ
مُشْتَرِكَةٌ فِي الْمَعْنَى فِي اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالسَّرِيَانِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ،

(١) المتقي الهندي: كنز العمال، ج٨، ص٨١.



وتتضمن معنى التغطية والستر. قال ابن منظور: (وكل من ستر شيئاً، فقد كَفَرَهُ وكَفَّرَهُ. والكافر الزُّرَّاعُ لستره البذر بالتراب. والكُفَّارُ: الزُّرَّاعُ. وتقول العرب للزُّرَّاع: كافر لأنه يَكْفُرُ البذرَ المَبْدُورَ بتراب الأرض المُنْثَرَةِ إذا أَمَرَ عليها مائِقُهُ؛ ومنه قوله «تعالى»: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾^(١)؛ أي أعجب الزُّرَّاعُ نباتُهُ... والكَفْرُ، بالفتح: التغطية. وكَفَرْتُ الشيءَ^(٢) أَكْفَرُهُ، بالكسر، أي سترته. والكافر: الليل، وفي الصحاح: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء. وكَفَرَ الليلُ الشيءَ وكَفَرَ عليه: غَطَّاهُ^(٣). وقد استعملت هذه اللغات كلمة «كفر» للدلالة على القرية وفيها نشاط الزراعة، فنجد في مصر «كفر الأمشوطي» و«كفر البرامون» وفي فلسطين «كفر قليل» و«كفر لاقف» و«كفر ياسيف» وفي لبنان «كفر تبنيت» و«كفر كلا» و«كفر حلدا»، وبعضها تسميات سريانية وليست عربية. وفي العربية تُطلق كلمة «كفر» على نقيض الإيمان،

(١) سورة الحديد: ٢٠.

(٢) وفي الإنجليزية تستعمل كلمة cover للدلالة على نفس المعنى.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة كفر.



والكافر على غير المؤمن، لأن الكفر تغطية للفطرة التي فطر الله الناس عليها، أو تغطية على العقل والروح كمنايع للهداية، أو للتغطية على العين والعقل بعدم رؤية دلائل عظمة الله ووحدانيته.

وهكذا فإننا نستعمل كلمة «سيارة» على وسيلة النقل المعروفة، وما ذاك إلا لأنها تسير، فناسب أن يُطلق عليها هذا الاسم.

وكلمة «الصاروخ» مشتقة من الصراخ، أي الصوت الشديد، وحيث أن المركبة الفضائية المنطلقة إلى السماء، تُصدر هذا الصوت الشديد، لذا ناسب أن تُسمّى صاروخاً.

• الشهادة والحياة:

والخلاصة أنه لا بد من وجود مناسبة ما بين المعنيين لكي نستعمل الكلمة فيهما. ولذا يُحتمل أن الآيات من سورة آل عمران التي تحدّثت عن المقتولين في سبيل الله هي الأساس في توظيف كلمة «الشهادة» و «الشهيد» في هذا المعنى، وذلك بلحاظ الحياة والرزق وحالة الترقب حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا



بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١). أَيَّ أَنْ لَّهُمْ نوعاً من الحضور، وهو من معاني الشهادة.

ويحتمل أيضاً أن ذلك إشارة إلى أن المقتول في سبيل الله شاهدٌ على أمته وعلى أعدائها فيما أدَّى إلى قتله، وفي أوضاعهم، كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ويحتمل أن استعمال هذه الكلمة في المقتول في سبيل الله جاء للإشارة إلى حضوره بقيمه وآثار تضحيتها.. فكم من أناس هم على قيد الحياة ولكنهم أموات في عقولهم وأرواحهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ

(١) سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.



بَعْدَهُ يَكْفُرُونَ ﴿ لماذا هذا الموقف منهم؟ (فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ
الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنْتَ
بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ مُسْلِمُونَ) ^(١). إنهم أحياء بحسب ظاهرهم، ولكنهم
في قيمة الأموات من حيث مواقفهم وردود أفعالهم.

وفي المقابل كم من أناس غيَّب الموت أجسادهم ولكنهم
حضور من خلال آثارهم وذكرهم... أليس النبي ﷺ حياً
مع كل أذان وصلاة وتلاوة للقرآن؟ أليس أمير المؤمنين علي
بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ حياً من خلال سيرته ومواقفه وخطبه
وكتبه وحكمه في نهج البلاغة؟ أليس الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حياً
مع كل مجلس يُعَقَد باسمه؟

• قيمة الشهادة:

هذه القيمة، وهذا المفهوم الذي عمل الإسلام على
ترسيخه في نفوس المسلمين أصابه الوهن على مدى قرون
طويلة، وتعرّض للتشويه والمسخ.

وواحدة من الأساليب التي مورست عن قصد أو دون قصد



وَأَدَّتْ إِلَى تَوْهِينِ قِيَمَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمِنْ ثَمَّ الْقَتْلُ
وَالشَّهَادَةُ، هُوَ ضَخُّ الْكَمِّ الْكَبِيرِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى
لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالصَّالِحِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَالَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الْمَبَالِغَةِ فِي ثَوَابِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ. فَعِنْدَمَا
يَتَرَبَّى الْمُسْلِمُ عَلَى أَنَّهُ فِي مَقَابِلِ عَمَلٍ عِبَادِي بَسِيطٍ لَا يَأْخُذُ
مِنْ وَقْتِهِ دَقَائِقُ مَعْدُودَةٍ، أَوْ فِي مَقَابِلِ عَمَلٍ لَمْ يَبْذُلْ لَهُ مِنْ
الْجُهِدِ إِلَّا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ، فَإِنَّهُ سَيُنَالُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الثَّوَابِ
الْعَظِيمِ، سَيَتَرَدَّدُ أَلْفَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لكَثِيرٍ مِنْ مَوَارِدِ
الْعَمَلِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَوْ الْمُتَعَلِّقِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ الَّذِي يَسْتَدْعِي مِنْهُ الْوُقُوعُ فِي الْإِجْهَادِ أَوْ التَّضَحِّيَةِ
وَلَرُبَّمَا الْخَطَرِ وَالْمَوْتِ.

مِثَالُ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ صَلَّى الضُّحَى كَذَا وَكَذَا رَكْعَةً أُعْطِيَ ثَوَابَ
سَبْعِينَ نَبِيًّا)^(١)، وَأَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَلَقَ اللَّهُ
«تَعَالَى» لَهُ طَائِرًا لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانٍ سَبْعُونَ أَلْفَ لُغَةٍ
يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ)^(٢).

(١) العجلوني الجَرَّاحِي: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ٢، ص ٥٠٦.

(٢) ابن القيم الجوزية: المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ص ٣٦.



ومثال ذلك في كتب الشيعة: (من صلى في ليلة الأولى من رجب ثلاثين ركعة بالحمد والجحد ثلاثاً، والتوحيد ثلاثاً، غفر الله له ذنوبه وبرأ من النفاق وكُتِبَ من المصلين إلى السنة المقبلة، وفي الثانية عشرًا بالحمد والجحد وثوابه كما مرّ، وفي الثالثة عشرًا بالحمد مرّة والنصر خمساً، بنى الله له قصرًا في الجنة - الحديث^(١) - وفي الرابعة مائة ركعة، في الأولى بالحمد والفلق وفي الثانية بالحمد والناس كلها، نزل من كل سماء ملائكة يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة - الخبر - وفي الخامسة ستاً بالحمد والتوحيد خمساً وعشرين مرّة، أعطي ثواب أربعين نبياً)^(٢).

وقد التفت المحققون في علم الحديث إلى أن من علامات ضعف الحديث ووضعه اشتماله على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير، والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقيق.

(١) أي كما جاء تفصيله في حديث طويل مروي عن النبي ﷺ.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٠١٦٠.



• الحسين بين أمرين:

لو قرّر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبقى في المدينة ليتفرّغ للعبادة بينه وبين ربه هل كان حياً وحاضراً وشاهداً بالمستوى الذي هو عليه اليوم وطوال القرون الماضية؟

لو قرر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستمر في الحج ولم يخرج إلى العراق ليعلن ثورته على الظلم والباطل والفساد، هل كان حياً وحاضراً وشاهداً بالمستوى الذي هو عليه اليوم وطوال القرون الماضية؟

لا أريد أن أقلّ من شأن العبادة.. بل كيف يمكن للإنسان المسلم أن يتقرّب إلى الله عَزَّجَلَّ، وأن ينال رضوانه، وأن يزداد من التقوى، وأن يسمو على الدنيا دون العبادة.. بل قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

ولكن عندما نكون بين خيارين، فأيهما نقدّم؟ وكيف يراد لنا أن نصوغ شخصياتنا ونحدّد مواقفنا على ضوء قيم ومبادئ الإسلام؟



• أنصار الحسين:

مَنْ فَهَمَ الْإِسْلَامَ فَهَمًا حَقِيقِيًّا هُمَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لنداء الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الكعبة وهو يريد مغادرة مكة قبل
يوم عرفة قائلًا: (مَنْ كَانَ فِينَا بَاذِلًا مُهْجَتَهُ مُوْطِنًا عَلَى
لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا فَإِنِّي رَاحِلٌ مُصْبِحًا إِنْ شَاءَ
اللَّهُ)^(١). لكن المشكلة كانت - من جهة - في مرض انعدام
الإرادة مع وضوح الطريق، والمشكلة كذلك كانت - ومن جهة
أخرى - في انقلاب المفاهيم والموازين الإسلامية.

فإذا كان بالإمكان الحصول على جنان الله ومئات
القصور والحدور العين والنعيم الذي لا ينضب - ولو مع
خذلان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ - فلم تعريض النفس للإجهاد
وخطر الإصابة والموت؟

• انعدام الإرادة:

في غزوة تبوك انعدمت الإرادة عند بعض المؤمنين لأنهم
أُخْلِدُوا إِلَى الدُّنْيَا.. ولنلاحظ أن الآية لا تخاطب المنافقين:

(١) ابن نما الحلبي: مشير الأحزان، ص ٢٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْزُرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١)، ولأنهم
استثقلوا الأمر: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا
لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ
اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ﴾^(٢).

ما الذي يجعل البعض يستثقل ذلك في الوقت الذي كان
الموقف لمواجهة جيش الروم العرمرم أن يكون كالتالي:
﴿انْزُرُوا خَفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)؟

ويمكن أن نعتبر أن انقلاب المفاهيم والموازين
الإسلامية أو لخطبتها من عوامل استثقال المؤمنين
للاستجابة لهذا الأمر الإلهي.. إن لم يكن في تلك المرحلة،
ففي مراحل لاحقة من العصر الإسلامي.

(١) سورة التوبة: ٢٨.

(٢) سورة التوبة: ٤٢.

(٣) سورة التوبة: ٤١.



• حضور دائم:

إن الشهادة حضور دائم في ساحة المعركة التاريخية بين الحق والباطل، بين هابيل وقايل، بين إبراهيم والنمرود، بين موسى وفرعون، بين محمد وأبي جهل، بين الحسين ويزيد. بقي الحسين وأنصاره حاضرين رغم موتهم وفيهم المراهق والشاب، وغاب كل الذين تركوه وحيداً ممن فضلوا العزلة بعنوان التعب، وممن أخلدوا إلى الأرض، وممن جبنوا فانسحبوا من المواجهة، وإن عمّروا مائة سنة!

أليس الخلود هو الوضع الطبيعي والأمر الحتمي لأنصار الحسين في هذا المشهد حيث قال: (لَمَّا كَانَ اللَّيْلُ قَالَ: «هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ، فَاتَّخَذُوهُ جَمَلًا، ثُمَّ لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، تَفْرُقُوا فِي سَوَادِكُمْ وَمَدَائِنِكُمْ حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا يَطْلُبُونِي، وَلَوْ قَدْ أَصَابُونِي لَهَوَا عَنْ طَلَبِ غَيْرِي»)، فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ وَأَبْنَاؤُهُ وَبَنُو أَخِيهِ وَابْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ: لِمَ نَفْعَلُ؟ لَنَبْقَى بَعْدَكَ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا، بَدَأَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ ثُمَّ إِنَّهُمْ تَكَلَّمُوا بِهَذَا وَنَحْوِهِ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ: «يَا



بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا قَدْ أَذْنَتْ لَكُمْ.
 قَالُوا: فما يقول الناس؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا
 وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم
 نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، وَلَا نَدْرِي مَا
 صَنَعُوا؟! لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ، وَلَكِنْ تَضْيِكُ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا
 وَأَهْلُونَا، وَنَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرُدَّ مَوْرِدَكَ، فَقَبِجَ اللَّهُ الْعِيشَ
 بَعْدَكَ! فَقَامَ إِلَيْهِ مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِي فَقَالَ:
 أَنَحْنُ نَخْلِي عَنْكَ وَلَمَّا نَعْذِرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ! أَمَّا
 وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ فِي صَدُورِهِمْ رَمَحِي، وَأُضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا
 ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي، وَلَا أَفَارِقُكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ
 أَقَاتَلَهُمْ بِهِ لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ.
 قَالَ: وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيُّ: وَاللَّهِ لَا نَخْلِكُ
 حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَا حَفْظُنَا غَيْبَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيكَ، وَاللَّهِ
 لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أَقْتُلُ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أَحْرَقُ حَيًّا ثُمَّ أَذِرُ، يَفْعَلُ
 ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلْقَى حِمَامِي دُونَكَ،
 فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ! وَإِنَّمَا هِيَ قَتْلَةٌ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامَةُ
 الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا. قَالَ: وَقَالَ زَهِيرُ بْنُ الْقَيْنِ: وَاللَّهِ



لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بِذَلِكَ القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك قَالَ: وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنا وفينا، وقضينا ما علينا^(١).





قراءة في عقل شاب عنيف - القسم ١



﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾^(١).

هل العنف جزء من هوية الشباب عموماً، أم أنه جزء من هوية الشاب المسلم؟ ماذا وراء حوادث العنف لدى الشباب؟ وما الذي يدور في عقل الشاب العنيف؟ فقصص العنف الشباب لا تكاد تنتهي إحداها حتى نسمع عن قصة أخرى.. لا يكاد يمر يوم إلا ونسمع عن مأساة جديدة.. بطلها شاب أو أكثر.. وضحاياها من الشباب وغيرهم.

ومع دخول الإرهاب التكفيري على الخط، برز دور الشباب بشكل كبير كوسائل تقتل وتذبح وتفجّر وتجرح وتشوّه وتيتّم وترمل وتدمّر وتحرق وتخرب ضمن الجرائم التي ترتكبها الجماعات الإرهابية المنتشرة في العالم.. سواء بحق المسلمين أو غيرهم.

• موسى قاتلاً:

ولو عدنا إلى الآيات التي بدأت بها حديثي لوجدنا فيها مظهراً من مظاهر العنف الصادر عن شاب.. بعيداً عن كونه عنفاً مبرراً أم لا.. فقد ختم المشهد بقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ



نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ^(١). وما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الكلام الذي نقله القرآن الكريم إلا للإشارة إلى وجود خلل ما، أو لبيان وجود مؤثر قوي دفعه لفعل ذلك، ولو عن دون سابق إصرار وترصد.

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاباً يعيش في بلاط فرعون معزّزاً، حيث اتخذته امرأة فرعون طفلاً كالولد، وترعرع في قصرها لسنوات، إلا أن تلك الحادثة قلبت حياته رأساً على عقب. فبعد تلك المكانة والعزة، أصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب.. ثم يتكرر المشهد أمامه من جديد، ويكاد أن يتعامل معه بنفس الطريقة التي ندم عليها مسبقاً، لولا اكتشافه أن أمره قد افْتُضِح.

المقتول كان ظالماً مستحقاً للعقوبة، ولكن ربما أمكن التعامل مع الظرف بصورة مغايرة تجنب النبي موسى التبعات السلبية لما جرى، لاسيما بلحاظ مكانته ونفوذه.

ولكن رغبة أولياء المقتول بالتأثر قوية، ومن هنا توالى الأحداث، إلى أن جاء التحذير بأن الملاً يأتَمرون بموسى

(١) سورة القصص: ١٥-١٦.

ليقتلوه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

• خصائص مرحلة الشباب:

هذه هي طبيعة عهد الشباب عموماً، ومن أهم ما يميزها:

١. الرغبة في التميز وتحقيق مكانة أو إنجاز بشكل سريع.
٢. توهج المشاعر والاستسلام للانفعالات والانقياد للعاطفة، اتساقاً مع نمو الجانب العاطفي لديهم بسرعة أكبر من نضجهم العقلي.

٣. الحماسة والعنفوان والقوة. ولذا نجد أن الشاب ابن العشرين يُقدِّم على ما لا يُقدِّم عليه ابن الأربعين، بل وابن الثلاثين.

ومن هنا نجد أن انفعال النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحماسته جرّته إلى اللجوء إلى العنف في مواجهة موقف لربما كان



بالإمكان التعامل معه بأسلوب آخر بعيد عن ذلك. ومما ساقه إلى الموقف العنيف وغير المناسب هو ما بيّنته الآية الشريفة حيث قال عزَّجَلَّ: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾^(١).

عاطفة الانتماء.. وتقسيم المجتمع إلى معسكرين.. جماعتي.. وأعدائي.. حب شديد وتضحية من أجل جماعته.. وبغض وعنف تجاه المعسكر الآخر.

وهذا من صور التحيز الناتج عن صناعة أو تبنيّ قوالب فكرية مسبقة، نقيّم من خلالها كل فرد لمجرد أنه من المعسكر الآخر، أو نقيّم به كل تصرف صادر عن هذا الفرد لمجرد أنه صادر عنه.

فهذا الفرد حتماً سيء لمجرد أنه ينتمي إلى ذلك العنوان، وهذا التصرف صادر عن عمد وسوء نية، لمجرد أنه صادر عن فلان. وعندما نأخذ موقفاً مسبقاً من شخص أو دين أو مذهب أو قومية أو قبيلة أو حزب أو غير ذلك، فسنتطبق القالب الذي صنعناه سلفاً في عقولنا على هذا

الشخص أو على كل من ينتمي إلى تلك الجهة المعنية،
وسنصدر أحكامنا حينئذ - وبلا تردد - بناء على ذلك.

كلهم سطحيون.. كلهم ماديون.. كلهم أغبياء.. كلهم
انتهازيون.. كلهم منافقون.. كلهم يكرهوننا.. كلهم لؤماء..
كلهم طيبون.. كلهم أخيار.. كلهم رحماء.. كلهم صادقون..
كلهم يحبوننا.. كلهم أمناء.. إلخ.

ما الذي يجعلنا نُصدر هكذا أحكام كلية قبل الاستماع
إلى الآخر، وقبل التعامل معه والاحتكاك به؟

• Autopilot :

إنها حالة شبيهة بوضعية التحكم الآلي للطائرة
Autopilot التي تجعل الطائرة تسير لوحدها، إذ يُسلم
الطيار القيادة لها فتأخذه إلى ما هو مُخطّط له سلفاً وفق
البرمجة الآلية.

إصدار الأحكام وفق القوالب الجاهزة يجعلنا نُقسّم
الناس وفق الانتماء، ونتعامل معهم بعد ذلك وفق هذا
التقسيم الذي لن يكون مصيباً دائماً، ولا غالباً.

ومن هنا، فإن هذه الوضعية ستجعلنا نندهش من وقت إلى آخر حين نتعامل مع أحد أفراد هذه المجموعة فنجده على النقيض تماماً من الحكم الصادر سلفاً.. فنستغرب أن هذا الفرد ليس لئيماً، أو ليس انتهازياً، أو ليس غيبياً، أو تبين أنه على خلاف الحكم الكلي، إذ تبين أنه خائن، أو كذاب، أو محتال.. إلخ. وحينها نكتشف أننا وقعنا في خطأ ناتج عن صناعة القوالب الفكرية الجاهزية، ولربما يكلفنا هذا الخطأ بعض الخسائر.

والحل يكمن في العودة إلى نظام التحكم اليدوي Manual Flight Control الذي يجعلنا نحكم على الأفراد بما هم أفراد، وضمن خصائصهم الفردية، لا من خلال الأحكام والقوالب الجاهزة.

• إقحام المقدّسات:

والأخطر من إصدار الأحكام وفق القوالب الجاهزة هو إقحام القداسة في هذا التقسيم، فهؤلاء يمثلون فسطاط الإيمان، والآخرون من فسطاط الكفر والنفاق.. هؤلاء يملكون الحقيقة الكاملة ومن سواهم في ضلال مبين..

هؤلاء هم الفرقة الناجية، وسائر الفرق هالكون.. هؤلاء من أهل الجنة، والباقون في النار.. هؤلاء وحدهم الذين يستحقون الحياة، ومن سواهم لا يستحقون إلا الموت!

عن هشام بن سالم عن زرارة^(١) قال: (دخلت أنا وحرمان^(٢) - أو أنا وبُكير^(٣) - على أبي جعفر عليه السلام. قال: قلت له: إنا نمدد المظمار. قال: وما المظمار؟ قلت: التُّرَّ^(٤). فمن وافقنا من علويٍّ أو غيره توليناه، ومن خالفنا من علويٍّ أو غيره برئنا منه. فقال لي: يا زرارة، قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) زرارة بن أعين من أصحاب الإمامين الباقر والصادق. كان فقيهاً محدثاً ومن أكبر علماء الشيعة في زمانه.

(٢) حرمان بن أعين أخو زرارة. كان فقيهاً ولغوياً ومن القراء المشهورين. صحب الإمام زين العابدين وابنه الباقر ثم الصادق.

(٣) بكير بن أعين أخو زرارة راوي الخبر. كان فقيهاً ومحدثاً. من أصحاب الإمامين الباقر والصادق.

(٤) المظمار: خيط للبناء يُقَدَّر به، وكذا التُّرُّ بضم التَّ بضم المثناة الفوقية والراء المشددة. يعني إنا نضع ميزاناً لتولينا الناس وبرائتنا منهم، وهذا الميزان عبارة عن ما نحن عليه من التشيع. فمن استقام معنا عليه فهو ممن توليناه، ومن مال عنه وعدل فنحن منه براء، أيًا كان.

حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا»^(١)؟ أين المرجون لأمر الله؟ أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً^(٢)؟ أين أصحاب الأعراف^(٣)؟ أين المؤلفة قلوبهم؟! وزاد حماد^(٤) في الحديث قال: فارتفع صوت أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ وصوتي^(٥) حتى كان يسمعه مَنْ على باب الدار. وزاد فيه جميل^(٦)، عن زرارة: فلما كثر الكلام بيني وبينه قال لي: يا زرارة حقاً على الله أن يدخل الضُّلال^(٧) الجنة^(٨).

(١) سورة النساء: ٩٨.

(٢) قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخْرُونا عَنْ دِينِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة التوبة: ١٠٢.
(٣) قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَّاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. سورة الأعراف: ٤٦-٤٧.

(٤) روى حماد بن عثمان عن زرارة نفس هذا الخبر مع الزيادة. كان حماد فقيها ومحدثاً من أصحاب الصادق والكاظم والرضا. وقد كانت له منزلة عظيمة.

(٥) أي صوت زرارة نتيجة حدة النقاش.

(٦) روى جميل بن دراج عن زرارة نفس هذا الخبر مع الزيادة التالية. كان جميل فقيها ومحدثاً من أصحاب الصادق والكاظم والرضا. وقد كانت له منزلة عظيمة.

(٧) أي الفئات المستضعفة التي ذكرها في الرد على زرارة.

(٨) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٣٨٢-٣٨٣.

فهذا النمط من التصورات «القداسوية» لا يقف عند حدٍّ، وهو قابل لأن يتطوّر إلى أن يصل إلى حدٍّ استباحة الدماء والأعراض والحقوق، وبمبررات وتأويلات شرعية ذاتية، أو بالاعتماد على بعض من لا يملكون فقاهاة حقيقية، أو بالوقوع ضحايا لأغراض مخابراتية.

والأشدّ خطورة من النموذجين السابقين أن يمتلك صاحب القوالب القداسوية الجاهزة القوة والسلطة والمال، وحينها قد يُقسّم العالم إلى فسطاطين.. فسطاط الخير المطلق.. وفسطاط الشر المطلق.. وكل من ليس معي، فهو عدوّي.. ويصبح هو ومتبنيّاته المعيار في هذا التقسيم، ومن ثمّ يُعلن الحرب على «فسطاط الشر» لإبادته، فكل من فيه لا يستحقّون الحياة.. وستكون آثارهم التدميرية كبيرة جداً وخطيرة وممتدة عبر الزمن.

وما الفوضى الأمنية والسياسية التي نشهدها اليوم، وشهدناها على مدى عقدين تقريباً من الزمان إلا نتيجة قيام الرئيس الأمريكي الأسبق «جورج بوش الابن» بتبني هذا النموذج وتطبيقه بكل ما أوتي من قوة سياسية وعسكرية

ومخابراتية وأمنية ومالية، وقد صدر في حقّه كتاب بقلم «بيتر سنغر»^(١) Peter Singer وتحت عنوان «رئيس الخير والشر» The President of Good & Evil يتحدث فيه الكاتب عن الخلفيات العقدية والفكرية والأخلاقية للرئيس الأمريكي الأسبق وأثرها على قراراته وسياساته ونتائجها الخطيرة.

• قوة الانفعالات والعواطف:

ونعود من جديد إلى قصة النبي موسى لاستخلاص العبرة منها، فالملاحظ وفق النص القرآني أنّ هناك مقداراً من العلم والحكمة وهبهما الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٢). هذا المقدار جعله يقيّم الموقف بعد ذلك بسرعة وبالشكل الصحيح: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾^(٣).

(١) فيلسوف أخلاقيات أسترالي الجنسية (ولد عام ١٩٤٦م)، يعمل كمتخصص في مجال الأخلاقيات التطبيقية ومقاربة القضايا الأخلاقية من منظور علماني نقعي.

(٢) سورة القصص: ١٤.

(٣) سورة القصص: ١٥-١٦.

ومع هذا كاد أن يكرر ذات العمل الذي أرجع منشأه إلى الشيطان! لأن الانفعالات والعاطفة لدى الشاب قوية جداً، فهي تغلب الحكمة والعلم.. وتخفي عندها ملامح وعبر تجارب الآخرين.. بل وحتى تجربته السابقة ومعاناته الشخصية. هذا الانجرار إلى الانفعالات والعاطفة القوية القائمة على الإحساس بالانتماء، والمواقف المترتبة عليها كلفته الكثير، واضطرتّه إلى أن يفقد الأمن والامتيازات التي كان يتمتع بها، وأن يهجر وطنه، وأن يخسر مكانته الاجتماعية، وأن يهرب خائفاً مطاردًا، وأن يعيش في الصحراء عشر سنوات. ومن هنا ندرك قيمة الحكمة التالية المروية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ينبغي للعاقل أن يحترس من سُكر المال، وسُكر القدرة، وسُكر الشباب، فإن لكل ذلك رياحاً خبيثة - تأثيرات سلبية - تسلب العقل وتستخف الوقار)^(١).

• القوة العسكرية:

بالإضافة إلى هذا العامل الذاتي، هناك عوامل خارجية عديدة مؤثرة بقوة في توجيه الشاب نحو العنف، وسنتناولها

(١) الأمدي: غُرر الحكم ودرر الكلم، ح ١٠٩٤٨.

بالعرض والتفصيل في القسم الثاني من هذا الموضوع، ولكن قبل ذلك لابد من بيان نقطة مهمة وحساسة، وهي أن استعمال القوة واللجوء إلى العنف في موضعه أمر حيوي ومهم ومطلوب، وقد قال عزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١) .. ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ومن هنا اهتمت كل الشعوب ببناء القوة العسكرية والدفاعية والحربية، وتدريب الشباب على القتال والدفاع عن النفس، واللجوء أحياناً إلى التجنيد الإلزامي... إلا أن هذا شيء، وما نتحدث عنه من صور العنف شيء آخر، لأننا نحاول معالجة الصور السلبية من العنف غير المبرر.

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٥١.

• موقف العباس :

لقد كانت كلمات أبي الفضل العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يوم العاشر من المحرم من تجليات استعمال القوة في الموضع الذي يحبه الله، ويدعو إليه العقل، وتُقرُّه الشرائع، وتمتدُّه الألسن، ويخلِّده التاريخ، حيث قال كما هو المروي عنه:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق البقين نجل النبي الطاهر الأمين

فهو في هذه الآيات يتماهى مع ما جاء في كتاب الله من لزوم الدفاع عن الدين وأوليائه الذين أخبر النبي ﷺ بأنهم الذين وقع عليهم الاختيار ليكونوا حملته وحُماته حيث قال: (وإني سائلكم - حين تردُّون على الحوض - عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما. قالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر: كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به ولا تضلُّوا ولا تبدَّلوا، والأصغر عترتي، وقد نبأني اللطيف الخبير أن لا يتفرَّقا حتى يلقىاني، وسألت الله ربي لهم ذلك فأعطاني، فلا

تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم^(١).
 كما أكد أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه الحقيقة حيث قال:
 (انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم
 فإن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا
 فابدوا وإن نهضوا فانهمضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا
 تتأخروا عنهم فتهلكوا)^(٢). إذ لم تكن المسألة بالنسبة
 إلى أبي الفضل العباس رضى الله عنه مجرد دفاع أخ عن أخيه
 المظلوم، وإن كان ذلك محبوباً في نفسه، بل كانت أيضاً
 امتثالاً لأمر الله ورسوله وإمامه. ففضى شهيداً عن
 بصيرة ووعي وعلم. وهو ما يعطي للشهادة قيمتها الكبرى
 حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
 أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ
 وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) العسكري: حديث الثقلين، ص ٢٨.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، خ ٩٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١.



قراءة في عقل شاب عنيف - القسم ٢



﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُ رَقَبَةً،
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مَسْكِينًا ذَا
مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا
بِالْمَرْحَمَةِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾^(١).

تحدثت في القسم الأول من هذا الموضوع عن العامل

الذاتي المؤثر في توجيه الشاب نحو العنف، وسأتناول في هذه القسم أهم العوامل الخارجية المؤثرة في ذلك.

١. العنف الأسري:

ويتمثل في الضرب المبرح للأبناء، التوبيخ والتجريح والتحقير الدائم، عدم الاعتناء بإنجازات الشباب أو الاستهانة بها، الإجبار على اختيارات معينة مزاجية.

سئل شاب عن تاريخ معين.. هل يتذكره؟ فأجاب: بالطبع أتذكره جيداً.. إنه أسعد يوم في حياتي. ولما سئل: لماذا؟ قال: إنه اليوم الذي خرج فيه والدي من المنزل ولم يعد إليه بعد ذلك أبداً. منذ ذلك اليوم، لم تعد والدتي عرضة للضرب المبرح، ولم أعد ألقى منه التعنيف والضرب والسُّباب.

وفي دراسة أجريت في جامعة «نيوهامبشاير» الأمريكية وتناولت التأثيرات السلبية التي تلحق بالطفل نتيجة العنف اللفظي، تبين أن أهم تلك السلبيات عبارة عن: (تفكيره المستمر في التخلص من حياته أو إلحاق الضرر الجسدي بنفسه عبر استخدام آلات حادة. كما أن العنف اللفظي يقلل من ثقة الطفل بذاته، ويجعله غير مؤهل نفسياً في



التعامل مع الآخرين، كذلك تسوء علاقة الطفل بأقرانه سواء الأصدقاء أو الإخوة، حيث يصبح غير قادر على إدارة محيطه الاجتماعي، ويكون دائم الشجار معهم كما يقوم بضربهم باستمرار، حيث يشعر الطفل في هذه المرحلة برغبة في العيش بمفرده، وإخراج الطاقة السلبية التي تتمركز داخله^(١).

٢. الشعور بالنقص:

ويكثر في الأيتام، وأبناء الطلاق، والأبناء غير الشرعيين، وهؤلاء إن لم يحاطوا برعاية وعناية نشأوا ناقمين على مجتمعاتهم، فيكثر فيهم التجبر والعصيان والانحراف إلا من رحم الله. ولابد من أن نعيد النظر حول انطباعاتنا ومواقفنا الاجتماعية والشرعية تجاه الأبناء غير الشرعيين، فهم في نهاية المطاف لم يكونوا السبب في اتصافهم بذلك، وليس من المعقول أن يساهم التشريع الإسلامي في تنشئة أفراد معقدين نفسياً واجتماعياً حين يواجهون المواقف السلبية تجاههم.

ولنلاحظ الآيات والأحاديث التالية التي تنبّه على ضرورة رعاية اليتيم في المجتمع: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾^(١)، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٢).

وعن النبي الأكرم ﷺ: (كن لليتيم كالأب الرحيم)^(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (الله الله في الأيتام، فلا تغبّوا أفواههم)^(٤)، ولا يضيعوا بحضرتكم، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ عال يتيماً حتى يستغني، أوجب الله له بذلك الجنة كما أوجب لأكل مال اليتيم النار)^(٥).

وفي عهد أمير المؤمنين لمالك الأشتر حين ولاه مصر: (وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقّة في السن)^(٦)، ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه)^(٧).

(١) سورة الفجر: ١٧.

(٢) سورة الضحى: ٩.

(٣) البخاري: الأدب المفرد، ص ٤١.

(٤) أي لا تجيعوهم.

(٥) الكليني: الكافي، ج ٧، ص ٥١.

(٦) أي الذين بلغوا في الشيخوخة إلى أن رقّ جلدهم وضعف حالهم عن النهوض فلا حيلة لهم.

(٧) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٣. الحروب وجرائم الحكومات الظالمة :

الحروب المنتشرة في المجتمعات المحيطة بنا وما يدور فيها من عنف ووحشية وجرائم حرب، علاوة على اضطهاد بعض الحكومات لشعوبها والعنف المستخدم من قبلها دون مبرر، وما ينتج عن ذلك من أزمات اقتصادية وبطالة وصور من الاضطهاد والتفرقة والتهميش لبعض الفئات. وقد جاء في تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦ والصادر عن برنامج الأمم المتحدة وفي ظل الحروب والأزمات التي تعيشها المنطقة آنذاك تحت عنوان «الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغير»: (وعي الشباب بقدراتهم وحقوقهم يصطدم بواقع يهمشهم ويسد في أوجههم قنوات التعبير عن الرأي والمشاركة الفاعلة وكسب العيش، ما قد يتسبب في دفعهم إلى التحول من طاقة هائلة للبناء إلى قوة كاسحة للهدم)^(١).

٤. استثارة العنف والغريزة :

يتم دفع الشباب نحو المغامرة والعنف عن طريق بعض

البرامج والأفلام التي يتابعونها، حتى يتوهم أحدهم أن البطولة في الضرب والقتل والسلب والنهب وكسر القوانين والتمرد عليها والعلاقات الغريزية التي لا تعرف حدوداً أو ضوابط، خصوصاً حين يتقمص الشاب أو المراهق دور البطل ويعيش عقليته وأجواءه، دون نظر لخصوصيات كل مجتمع، وكل زمان، وكل ثقافة، والفرق بين الواقع والخيال.

وانضم إلى ما سبق العامل التكنولوجي الذي سرق قسماً من أبناء هذا الجيل، وعزلهم في أفكارهم وحواراتهم ضمن أجواء العالم الافتراضي الوهمي. هذا العامل دفع هؤلاء الشباب إلى أن يرسموا تصوراتهم من وحي ذلك العالم الافتراضي، فابتعدت قراراتهم في كثير من الأحيان عن الواقعية وغابت عنهم مجموعة من العوامل التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ القرارات المصيرية.

كما أن لوسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي أحياناً دور تحريضي من نوع آخر، يعمل على إذكاء مشاعر الشباب، والتشجيع على التمرد على القيم والأخلاقيات العامة والواقع المعاش أو على العنف تجاه مكوّنات معيّنة.

٥. المخدرات بأنواعها :

للمواد المخدّرة ومشروبات الطاقة وبعض الأطعمة التي تهيج الشباب وتخرجهم من حالة الضبط النفسي والاعتدال السلوكي دور في تحريكهم نحو العنف.

وقد شهدت الدورة الاستثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة والتي عُقدت في عام ٢٠١٦ بشأن مشكلة المخدرات العالمية، تأكيد الدول الأعضاء على الأهمية المحورية للاتفاقيات الدولية الثلاث لمكافحة المخدرات، وتضمنت الوثيقة الختامية أكثر من ١٠٠ توصية عملية، تعمل البلدان على ترجمتها إلى إجراءات بقيادة لجنة المخدرات.

وقد تنوعت واختلفت الآراء حول العلاقة بين المخدرات والجريمة، وهل تلك العلاقة هي علاقة ارتباط بين مقدمات ونتائج، أم أنها علاقة ارتباط بين مثير واستجابة. ففي خلال السنوات الأخيرة وبعد انتشار ظاهرة المخدرات عالمياً وسوء الاستعمال المفرط والزائد عن الحد لها، كان من الواضح أن ثمة جرائم تحدث قبل التعاطي وجرائم أخرى تحدث بعد التعاطي، وأغلب تلك الجرائم يرتبط بأمرين .. الأول منهما

يتعلق بجلب المخدرات وتوزيعها، حيث تحدث العديد من جرائم القتل والإيذاء أثناء الاصطدام مع قوات الأمن التي تطارد عصابات المهربين، أو حتى أثناء اصطدام المهربين مع بعضهم البعض بسبب الصراع على تلك المخدرات.

والأمر الثاني يتعلق بعملية استهلاك وتعاطي تلك المخدرات، وأغلب الجرائم المتعلقة بذلك هي تلك التي تحدث بسبب القهر الذي يسبق رغبة المدمن في الحصول على المخدر، عندما يقع في ضائقة مالية تحول بينه وبين القدرة على شراء المخدرات، فقد يسرق ليحصل على المال من أجل شراء المخدرات أو قد تبيع عرضها وشرفها من أجل الحصول على المخدرات.

وتشير دراسة أجريت في تورنتو بكندا إلى تورط الكثير من الأحداث والشباب في نشاط عصابي لارتكاب جرائم، مثل السرقة والسطو من أجل الحصول على المال لشراء المخدرات. كما اتضح أيضاً أن جرائم العنف والتشويه واستخدام الأسلحة قد صاحبت تسويق مخدر كراك الكوكايين، وأيضاً كثيراً ما يرتكب مسيئو استعمال العقاقير



جرائم تتصل بتعوّدهم تعاطي المخدرات، وخاصة من أجل الحصول على العقاقير أو المال الذي يشترونها به. ومن ثم لم تعد ظاهرة تعاطي المخدرات ظاهرة اجتماعية سيئة جداً فحسب، وإنما أصبحت جريمة كغيرها من الجرائم كالسرقة والقتل، والسبب في ذلك أنها تسبب اختلال العقل والتفكير مما يدفع بالفرد إلى ارتكاب أي جريمة دون وازع أو ضمير^(١).

أما بالنسبة إلى مشروبات الطاقة، فقد أكدت دراسات عدة على أنها ترفع من معدّلات العنف المدرسي بين الأطفال، والجريمة بين المراهقين الذين يتعاطونها. بعض الدراسات المسحية للغذاء والتي تمت ببعض الدول بيّنت أن مشروبات الطاقة مواد منبهة يتم تداولها كالكحول المثبط، وتستهلك بكميات عالية نسبياً من الشباب والمراهقين، وهو ما يزيد من جفاف الجسم ويعيق تخلصه من السموم كما تؤدي إلى الإثارة وفرط التهيج والعصبية والقلق، الأمر الذي يفسّر نزوعهم إلى العنف عند تناولها بإفراط^(٢).

<http://www.addiction-wiki.com> (١)

<http://www.faifaonline.net> (٢)

٦. محاولة إثبات الذات:

عندما يشعر المراهق أو الشاب بالفشل في جوانب معينة كالتعلم أو ممارسة رياضة ما أو تكوين الصداقات أو استمرارها، فإنه يسعى من خلال العنف إلى محاولة إثبات ذاته وقدرته على تحقيق شيء ما، أو للتنفيس عن حالة الاحتقان النفسي التي يعاني منها. وقد جاء في مقال تحت عنوان «أسباب الفشل الدراسي في انتاج العنف المدرسي»: (نجد الدارسين يعانون بشكل كبير من قلق الامتحان فينخفض مستوى أدائهم في الواجبات المنزلية ويصادفون مشكلات في فهم بعض المواد الدراسية وفي تحديد العناصر المهمة في تمارينها، مما يؤدي إلى ضعف في تركيزهم وشدة قلقهم في أثناء النوم ويزيد من تشويشهم أثناء الدراسة، وجميعها وسائل لبعث العنف في المدرسة أولاً وفي المجتمع ثانياً)^(١).

٧. محاولة لفت الانتباه:

نتيجة إحساس الشاب بالإهمال أو الدونية، فإنه قد

يسعى للفت انتباه الوالدين أو جهة أخرى، لعله يجد شيئاً من الاهتمام والرعاية.. وقد يدفعه اليأس إلى فعل عنيف أملاً في أن يصدمهم من خلاله، ليلتفتوا إليه، وليذكّرهم بوجوده في حياتهم، ولضرورة أن يعيروه شيئاً من الاهتمام، فقد يكون القادم أسوأ من ذلك بكثير.

٨. تغطية العيوب:

قد يسعى الشاب أو المراهق إلى التغطية على عيوبه الشخصية من خلال إرهاب الآخرين وفرض الاحترام لشخصه من خلال ذلك.

٩. ضعف التربية الأخلاقية:

ضعف التربية الأخلاقية والآدابية حول قيم العفو والتسامح ومفهوم القوة والنظرة إلى الآخر المختلف والموقف منه، من العوامل المهمة الدافعة نحو العنف في سلوك الشباب والمراهقين.

١٠. أسهل من الإقناع والحوار:

من الواضح أن القوة والبطش أسهل من الإقناع والحوار..

ففي لحظة عنف قد يفرض الإنسان رأيه، أو يدفع الآخرين إلى الخنوع والاستسلام، بينما الإقناع يحتاج إلى نفس طويل في إطار الحوار والأخذ والرد وتحريك العقل والاستعانة بالأدلة والدراسات وما إلى ذلك، وقد يكون الفشل حليفه في نهاية المطاف.. على خلاف ما لو لجأ إلى العنف، فإنه قد يجني ثمرة ذلك في وقت قصير جداً، ويتحقق له ما يريد على المدى المنظور، وإن كان لهذا الأمر سلبيات كثيرة وتبعات قد تكون خطيرة فيما بعد.

• خلطة مزدحمة :

هذه الخلطة المزدحمة بالمؤثرات الداخلية والخارجية تضغط بقوة على جيل الشباب، وتجعل عالمهم مليئاً بالتحديات، وتدفعهم نحو العنف أحياناً، حتى بحق أقرب الناس إليهم، وأشدّهم فضلاً وحقوقاً عليهم كالوالدين. وهو ما يستدعي المعالجة الحكيمة والدقيقة لهذه الصورة السلبية من استعمال القوة، وتوظيف الطاقة الشبابية الهائلة في التدمير.. ومن صور المعالجة:

١. التوكّل على الله والدعاء وطلب التوفيق السداد في

تربية الأبناء. ونجد في دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام في الصحيفة السجادية كلمات رائعة في هذا المجال حيث يقول:

(اللَّهُمَّ وَمَنْ عَلَيَّ بَقَاءٌ وَلُدَيَّ، وَبِإِصْلَاحِهِمْ لِي، وَبِمَتَاعِي بِهِمْ. إِلَهِي أَمُدُّ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصَحِّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، وَعَافِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي جَوَارِحِهِمْ وَفِي كُلِّ مَا عُيْتُ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَأَدْرِزْ لِي وَعَلَى يَدَيَّ أَرْزَاقَهُمْ، وَاجْعَلْهُمْ أَبْرَاراً أَتَقِيَاءَ بُصْرَاءَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَكَ وَلَاوَلِيَّائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلَجَمِيعَ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ آمِينَ.... وَاجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّينَ، وَعَلَيَّ حَدِيثِينَ مُقْبِلِينَ مُسْتَقِيمِينَ لِي، مُطِيعِينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلَا عَاقِينَ وَلَا مُخَالَفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى تَرْبِيَّتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ) (١).

٢. ضرورة استشارة العقل والحكمة لدى الشباب وبشكل دائم، لأنَّ من شأن الانفعال الشديد والعاطفة القوية أن تحجب دور العقل لدى الإنسان.

٣. التأكيد على أهمية وجود مرجعية – بالمعنى اللغوي للكلمة – عاقلة وواعية، عركتها الحياة، وأنضجت خبراتها، تكون هي ملجأ الشباب لتقييم التصرفات والمواقف وردّات الأفعال، وليفتح قلبه لها، وقد تكون هذه المرجعية تتمثّل في أحد الوالدين أو الأجداد أو المعلّمين أو غيرهم. ويمكن للوالدين إرشاد أبنائهم وتهيئة الظروف لخلق هذه الحالة المرجعية وتشجيعها.

٤. التوعية الدائمة للشباب حول طبيعة وخصائص المرحلة التي يعيشونها، سواء من خلال المنهج التعليمي أو عقد الدورات والبرامج الحوارية أو البرامج التلفزيونية – وما يشبهها على مواقع الفيديو كاليوتيوب – أو القراءة.

٥. بيان أهمية التواصل مع أصحاب الرأي والحكمة والخبرة في الحياة.

٦. توعية الشباب إلى أن الخطوات التي يُقدّمون عليها نتيجة التعجّل والتفرد في القرار، والانسياق وراء عاطفتهم الشديدة، قد لا تمسّهم هم فقط، إذ لربما أربكت ارتداداتها واقع مجتمعٍ بأكمله، وإلى مديّاتٍ بعيدةٍ جداً.



٧. معالجة الأسباب التي ذكرناها من قَبْل بخصوص طبيعة العلاقة مع الشاب، وتعديل الخطاب الديني، ونشر الثقافة التربوية السليمة بين أولياء الأمور والمعلمين، وما إلى ذلك.

٨. التركيز على نشر ثقافة التراحم، والتفاهم، والحوار، ونبذ التعصّب الممقوت.

٩. مواجهة البطالة وملء أوقات الفراغ لدى الشباب بما هو نافع على المستوى الشخصي والاجتماعي معاً.

١٠. اعتماد الحوار بين الشباب والأطراف المعنية، ودراسة مشكلاتهم بكل شفافية ومصداقية، وإعطاؤهم الفرصة للتعبير، على أن يقوم بذلك مَنْ هم أقرب إلى أعمارهم وأفهامهم وعقولهم وأعرف بمتطلبات مرحلتهم.

• بين عنفين:

لابد وأن نعود لنؤكد ما انتهينا إليه في القسم الأول من الموضوع وهو الفرق ما بين العنف السلبي، أو العنف الذي يخدم الجريمة، وبين العنف الذي يأتي كنوع من الدفاع

عن القيم أو النفس أو الدين أو العرض أو المال أو الوطن وما إلى ذلك، مما يجمعه ما يمكن تسميته بعنوان العنف الإيجابي والمبرر.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

ويأتي كل هذا في إطار العنف الإيجابي المتمثل في الدفاع عن العناوين التي ذكرناها، لا العنف السلبي الذي يتضمن العدوان على الآخرين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٣).

ومن هنا نقول، أن ما قام به القاسم ابن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام في يوم العاشر - وهو شاب يافع - من محرم

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) سورة التوبة: ١٢٣.

(٣) سورة البقرة: ١٩٠.



بمثابة صورة من صور العنف الإيجابي المتمثل في استعمال القوة انتصاراً للقيم والمبادئ والحق والدين والكرامة. فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أن القاسم أدرك أن قيمة الحياة الدنيا في ما تختزنه من مُثُلٍ عُلِّيا وفُرصٍ سانحة للعمل بما يُرضي الله عَزَّجَلَّ، لتجعل من الدنيا مسجداً لأحباء الله ومتجراً لأولياء الله، أما إذا تحوّلت الدنيا إلى مسرح لبيع الآخرة للإقبال على حياة الملذّات وتلبية الشهوات ونيل شيء من الحطام الزائل، فعلى هذه الدنيا العفا.. وسيكون الموت عنده - قتلاً في سبيل الله ودفاعاً عن الدين وأهله - أحلى وألذ من العسل.

روى الطبري في تاريخه عن حميد بن مسلم، قال: (خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر، في يده السيف، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لي عمرو ابن سعد بن نضيل الأزدي: والله لأشدن عليه، فقلت له: سبحان الله! وما تريد إلى ذلك! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم، قال: فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه فما ولى حتى ضرب

رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: يَا عَمَاهُ! قَالَ:
 فَجَلَى الْحُسَيْنِ كَمَا يَجْلَى الصَّقْر، ثُمَّ شَدَّ شَدَّهُ لِيْثْ غَضَبٍ،
 فَضْرَبَ عَمْرًا بِالسَّيْفِ، فَاتَّقَاهُ بِالسَّاعِدِ، فَأَظْنَهَا مِنْ لَدُنِ
 الْمَرْفَقِ، فَصَاحَ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنْهُ، وَحَمَلَتْ خَيْلٌ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ
 لِيَسْتَنْقِذُوا عَمْرًا مِنْ حُسَيْنٍ، فَاسْتَقْبَلَتْ عَمْرًا بِصُدُورِهَا،
 فَحَرَّكَتْ حَوَافِرَهَا وَجَالَتْ الْخَيْلُ بِفِرْسَانِهَا عَلَيْهِ، فَوُطِئَتْهُ
 حَتَّى مَاتَ، وَانْجَلَتْ الْغُبْرَةُ، فَإِذَا أَنَا بِالْحُسَيْنِ قَائِمٍ عَلَى رَأْسِ
 الْغَلَامِ، وَالْغَلَامُ يَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ، وَحُسَيْنٌ يَقُولُ: بُعْدًا لِقَوْمِ
 قَتْلُوكَ، وَمَنْ خَصَمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيْكَ جَدُّكَ! ثُمَّ قَالَ:
 عَزَّ وَاللَّهِ عَلَى عَمِّكَ أَنْ تَدْعُوهُ فَلَا يَجِيبُكَ، أَوْ يَجِيبُكَ ثُمَّ
 لَا يَنْفَعُكَ! صَوْتَ وَاللَّهِ كَثُرَ وَاتَرُهُ، وَقَلَّ نَاصِرُهُ. ثُمَّ احْتَمَلَهُ
 فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رِجْلِي الْغَلَامِ يَخْطُانِ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ
 وَضَعَ حُسَيْنٌ صَدْرَهُ عَلَى صَدْرِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا
 يَصْنَعُ بِهِ! فَجَاءَ بِهِ حَتَّى أَلْقَاهُ مَعَ ابْنِهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ
 وَقَتْلَى قَدْ قَتَلَتْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَسَأَلْتُ عَنِ الْغَلَامِ،
 فَقِيلَ: هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ^(١).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣١.

النصر من منظور حضاري

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

نزلت هذه الآية الشريفة في إطار معالجة سورة آل عمران لما جرى في غزوة أحد، وبدأت الايات الشريفة بالحديث عن ذلك بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

(١) سورة آل عمران: ١٢٩.

الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١)، وهو جانب من الاستعداد الميداني العسكري بترتيب صفوف المقاتلين في ساحة المواجهة القتالية في صبيحة يوم المعركة.

ثم انتقلت لعرض لحظة حرجة كادت أن تربك تلك الاستعدادات: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، فقد قرّرت جماعتان من مكُونات جيش المسلمين أن تتركها ساحة القتال خوفاً من العدو، وتأثراً بانسحاب عبدالله بن أبي بن سلول مع جماعته من المنافقين، ولولا تدخل العناية الإلهية لوقع ما لا يُحمد عُقباه.. حين انسحب المنافقون، نزل عدد المقاتلين في جيش المسلمين من قرابة الألف إلى ٧٠٠ مقاتل تقريباً في مقابل ما يناهز ٣٠٠٠ من مقاتلي المشركين، ولو انسحبت أيضاً الجماعتان اللتان تحدثت عنهما الآية، لنقص العدد عن ذلك كثيراً. وجاءت الآيات اللاحقة لتذكّر المسلمين بالحقائق التالية:

(١) سورة آل عمران: ١٢١.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٢. وقد تكون الآية في معرض بيان ما حدث قبل يوم من القتال لا في صبيحته.



١. التفوق العددي ليس مقياساً للنصر والهزيمة.

٢. الانتصار في يوم بدر خير برهان على ذلك.

٣. النصر من عند الله.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ﴾^(١).

وتحدثت الآيات عن يوم بدر، وعن قضايا أخرى لتختتم
بتقرير الحقيقة التي تلخص منطلق بحثنا هذا، وهي: ﴿وَلَا
تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)،
فهناك فرق ما بين النصر والفتح والغلبة من المنظور
العسكري، وبين النصر والفتح والغلبة من المنظور
الحضاري.

وقد لخص الإمام زين العابدين عليه السلام في الحوار التالي
هذا الفرق، وبطريقة عملية ومميّزة، ففي أمالي الشيخ
الطوسي بسنده عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (لما

(١) سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩.

قَدِمَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ قُتِلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
استقبله إبراهيم بن طلحة^(١) بن عبيدالله، قال: يا علي
بن الحسين، من غلب؟ وهو يغطي رأسه وهو في المحمل،
قال: فقال له علي بن الحسين: إذا أردت أن تعلم من غلب
ودخل وقت الصلاة فأذن وأقم تعرف الغالب^(٢).

في الحوار السابق بين الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ
النصر والفتح والغلبة الحضارية بعد أن كان سؤال إبراهيم
التمييز عن النصر والفتح والغلبة العسكرية. وقد تعرّض
القرآن الكريم لمعالجة هذه المسألة في إطار معالجته
لأحداث غزوة أحد سنة ٣ هـ والتي هُزم فيها المسلمون
عسكرياً نتيجة عوامل متعددة أهمّها:

(١) الصحيح: إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله التيمي،
حفيد الصحابي طلحة بن عبيدالله، وقد قُتل أبوه محمد يوم الجمل
سنة ٣٦ هـ، وأمه خولة بنت منظور الفزارية. تزوج بها الإمام الحسن
المجتبي لاحقاً، فأنجبت له الحسن «المنثى»، وهذا يعني أن الحسن
المنثى هو أهو إبراهيم لأمه. وكانت خولة ذات خصال حسنة في هيئتها
وفصاحتها وأدبها، وقد امتنع والدها عن تزويجها حين تقدّم لخطبتها
كثير من رجال قومها وغيرهم. ولما طلق أبوها أمّها مليكة، تزوّج طلحة
بالأم، وزوّج خولة لابنه محمد، فولدت له إبراهيم وداود وأم القاسم.
(٢) الطوسي: الأمالي، ص ٦٧٧.

١. وقوع التنازع في صفوف المقاتلين.

٢. عصيان البعض للأوامر النبوية.

٣. مشاركة البعض بدوافع مادية بحتة.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وكانت الهزيمة شديدة إلى المستوى التالي: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ....﴾^(٢).

وفي إطار معالجة المسألة وبيان الفرق ما بين النصريين،

(١) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٣-١٥٤.

فقدّمت السورة خمس حقائق مهمة وفريدة في الفكر الإنساني لمعالجة هذا الموضوع، لبيان الفرق بين النصر العسكري والنصر الحضاري: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

١. أنتم الأعلون ! وكيف ذلك وهم المنهزمون المقتولون المصابون الهاربون من ساحة المعركة؟ وإذا كانوا الأعلون، فلا بد أن أعداءهم المنتصرين في المعركة والعائدين إلى ديارهم بنشوة النصر هم الأسفلون الساقطون الفاشلون ! فكيف ذلك؟

الآية تبيّن أن هناك علوّاً وسقوطاً آخر وراء العلوّ والسقوط في القراءة السطحية لمشهد تلك المعركة، وهو الأهم، لأنه الأبعد مدى والأشد تأثيراً. ولكنه علوّ مشروط.. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فبيّن النصر والإيمان علاقة وثيقة.. وبمعنى آخر، الإيمان يعني العلوّ على الدوام: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٢) سورة غافر: ٥١.



﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). وهذا العلو والانتصار والغلبة للمؤمنين مشروط بتجاوز الاختبار العسير: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢). ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٣). ومشروط أيضاً بأن ينصروا الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٤). فإذا تحقق الشرطان تحققت النتيجة الحتمية.. العلو والنصر للمؤمنين.. ولكن كيف نفسر إذاً هزيمة المؤمنين في أحد؟

النصر والعلو لا يعني النصر والعلو والفتح العسكري دائماً، وتلك الهزيمة العسكرية مفردة من مفردات القروح والآلام وليست هزيمة بالمعنى الحضاري للهزيمة.

٢. وما دام الأمر كذلك، صار لزاماً على المؤمنين أن

(١) سورة الروم: ٤٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٢-٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٤) سورة محمد: ٧.

لا يستغرقوا في أحزانهم التي قد تُسقطهم وتُضعفهم وتهزمهم نفسياً: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

٢. هذه الآلام والقروح كما أصابتهم أصابت أعداءهم الذين عادوا إلى مكة المكرمة بإصابتهم وخسارة شيء من الأموال والأنفس، وعدم تحقيق النتيجة التي تأملوها بالقضاء على النبي والإسلام: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾^(٢).

صحيح أن الخسائر في الأرواح والأموال في جانب المؤمنين كانت أكبر، ولكنها ليست المعيار في المعنى الحضاري للهزيمة والنصر. ومن هنا قال عَزَّجَلَّ مبيِّناً الفرق ما بين المؤمنين عندما يصابون بالقرح وبين المشركين: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٣) سورة النساء: ١٠٤.



أنتم ترجون الآخرة، دونهم..

وأنتم ترجون رحمة الله، دونهم..

وأنتم ترجون المغانم الإلهية، دونهم..

كل هذا يجب أن يفيض عليكم بالصبر والتحمل
والتغلب على الهزيمة العسكرية الآنية، وآلام فراق الأحبة
والجراحات.

٤. انتقال السلطة والقوة من سنن الله عزَّجَل في التاريخ
والمجتمعات، فتجد أن القوي يضعف، ثم يعود ليقوى، ولربما
لا يعود لذلك.. والسلطة قد يتكون بيد جهة ثم تفقدها
لتصبح بيد أخرى.. وهكذا. ﴿.... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ﴾^(١).

وانتقال السلطة وتداول الأيام لا يعني بالضرورة الهزيمة
أو النصر بالمعنى الحضاري.. فقد يكون كذلك، وقد يكون
بمعنى النصر والهزيمة بالمنظور العسكري فقط. فكم
من أمم هُزمت عسكرياً في معركةٍ ما هزيمة نكراء، ولكن

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

هذه الهزيمة أعادت لها الحياة والقوة والفاعلية بحيث أنها انطلقت لتكون أقوى وأكثر امتداداً مما كانت عليه من قبل.

في ظرف تداول الأيام، والارتفاع والهبوط الميداني، تتحقق نتيجتان إن كان أحد طرفي الصراع هم المؤمنون حقاً، وفي الطرف الآخر هم الكافرون: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

تمحيص وتشديد ودخول في اختبارات عسيرة وشديدة لكي يظهر المعدن الأصيل في نهاية المطاف، مما يؤهلهم للبقاء أقوىاء صلاباً ويعطيهم الامتداد في الزمن. ومحق وسقوط وهلاك ودمار للكافرين في نهاية المطاف، وإن غلبوا وانتصروا في مشهدٍ أو آخر.

٥. من خلال التمحيص تزكو نفوس المؤمنين ويصبحون في حالة من الاستحقاق لدخول جنة الآخرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران: ١٤١.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢.

• تبدّل موازين القوى:

وقد أثبتت الأيام مصداقية ما عرضه القرآن الكريم، إذ سرعان ما تبدّلت موازين القوى لصالح المؤمنين، ولم تمض سوى خمس سنوات حتى دخل المسلمون مكة فاتحين. ثم بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وأصبحت كل الجزيرة العربية تحت راية الإسلام، وما لبث أن دخل الإسلام إلى الشام والعراق وفارس ومصر وغيرها من تخوم الأرض.

وتحوّلت الفئة المؤمنة التي يتكالب عليها المشركون واليهود والمنافقون لمحقتها، إلى قوة حضارية ذات امتداد جغرافي وزمني: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

هذا هو مفهوم النصر والفتح والغلبة من المنظور الحضاري الذي بيّنه الإمام زين العابدين عليه السلام في

كلمته التي بدأت بها. فالذين قرأوا مشهد واقعة الطف من منظور سطحي ساذج اعتبروا أن النصر كان حليف الأمويين، وأما الذين عرفوا سنن الله عزَّجَلَّ ومنطق القرآن فقد أدركوا أن الأيام تتداول بين الناس، وأن القرح إذا أصاب المؤمنين فهو ليس نهاية المطاف بالنسبة إليهم.. ولذا كانت الصورة لديهم واضحة بأن النصر الحقيقي هو النصر بالمنظور الحضاري.. النصر الذي يُخلد أصحابه بالذكر الحسن، والذي يدفع عشرات الملايين من الناس لكي يهتفوا اليوم باسم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مستذكرين ملحمة التاريخية الخالدة... الملحمة التي سحرت العقول، وأخذت بمجامع القلوب، وألهمت الشعراء والأدباء والفنانين، وجعلت اسم الحسين اسماً خالداً تتبارك الأجيال بتسمية أبنائها به.. واسماً خالداً تتغنَّى الأجيال بأمجاده في ما جسده من قيم ومبادئ وأخلاقيات وتضحيات مُخلصة... الملحمة التي قدّمت لنا علياً الأكبر كنموذج للمؤمن صاحب البصيرة النافذة على الرغم من أنه كان لا يزال شاباً لم يبلغ الثلاثين، ولكنه أدرك سنة الله في النصر والهزيمة،



والمفهوم الحقيقي للنصر والهزيمة.. ففي تاريخ الطبري
 عن عقبة بن سمعان قال: (لما كان في آخر الليل أمر
 الحسين بالاستقاء من الماء ثم أمرنا بالرحيل ففعلنا.
 قال فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة خفق
 الحسين برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه
 راجعون والحمد لله رب العالمين. قال: ففعل ذلك مرتين
 أو ثلاثاً قال: فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين على فرس
 له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين،
 يا أبت، جعلت فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا
 بني، إنني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس
 فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم. فعلمت أنها
 أنفسنا نُعيت إلينا. قال له: يا أبت لا أراك الله سوءً. ألسنا
 على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا
 أبت، إذاً لا نبالي، نموت محقّين. فقال له: جزاك الله من
 ولد خير ما جرى ولداً عن والده)^(١).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٩.

ثأر الله

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ
كَانَ مَنْصُورًا﴾^(١).

نقرأ في بعض نصوص زيارة الإمام الحسين عليه السلام
عبارة: (السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره) فما المراد

(١) سورة الإسراء: ٣٣.



بهذا المصطلح؟ وكيف نوفّق بين الموقف السلبي للإسلام من الثأر وبين عنوان «ثأر الله» الذي أصبح - كما في النص السابق - لصيقاً بالإمام الحسين، فألهم الشعراء والفنانين والخطّاطين، فحوّلوه إلى لوحات أدبية وفنية رائعة؟

• مسرحية ثأر الله :

ومثال على ذلك، قيام عدد من الفنانين المصريين في أواخر ستينيات وبداية سبعينيات القرن العشرين بإنتاج مسرحية تاريخية تحت عنوان «ثأر الله.. الحسين ثائراً وشهيداً» استلهاً من روايتي الأديب عبدالرحمن الشرقاوي «الحسين شهيداً» «الحسين ثائراً»، وتم الإعداد لهذا العمل الفني تحت وطأة هزيمة حرب ١٩٦٧ ضد العدو الصهيوني وحلفائه، ووافق الأزهر الشريف على العمل متحفّظاً على بعض عبارات السيناريو، ومشترباً عدم ظهور شخصيتي الإمام الحسين والعقيلة زينب، والاكتفاء بأداء صوتي لهما من وراء الستار.

وحيث ارتأى المخرج أن الالتزام بهذا الشرط يُضعف العمل المسرحي، مع عدم إمكانية تجاوز رأي الأزهر، لذا



فقد اضطر لإلغاء العمل، والاكتفاء بعمل بروفات مفتوحة للجمهور ولمدة ثلاثين ليلة، حضرتها جماهير غفيرة فاقت كل التوقعات..

• الثأر في اللغة :

قال ابن منظور: (الثَّأْرُ الطَّلَبُ بالدم... ويقال: ثَأَرْتُ القَتِيلَ وبالقتيل ثَأَرًا وَثُورَةً، فَأَنَا ثَائِرٌ، أَي قَتَلْتُ قَاتِلَهُ... والثائر: الطالب. والثائر: المطلوب... يا ثارات عثمان أي: يا أهل ثاراته، ويا أيها الطالبون بدمه، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه^(١). وخلاصة كلامه أنه عندما يُقْتَل أحدهم يقوم أولياؤه أو بعضهم بالانتقام من القاتل في مقابل ذلك الدم المسفوح.. هذا هو الثأر. ونداء «يا ثارات فلان» هو اختصار لعبارة «يا أهل ثارات فلان».. أي «يا أيها الطالبون بدمه».

• الثأر في الجاهلية :

الثأر في الجاهلية كان يتحقق بصور عديدة، يُتجاوز فيها الحدود الإنسانية؛ حتى أنه كانت تقوم الحروب أحياناً

(١) ابن منظور: لسان العرب، ص ٩٧.

ثأراً لمقتل شخص واحد، كما في حرب البسوس التي قامت بين قبيلتين وحلفائهما بعد قتل «كليب التغلبي» على أثر قتله لناقاة جاره! واستمرت الحرب بين ٢٠ إلى ٤٠ سنة. كما أن هذا الثأر لم يكن يخص الأولياء المباشرين للمقتول، بل تُعتبر كل القبيلة مسؤولة عن الثأر لدمه، وهي بأجمعها صاحبة الدم، لأنه عدوان يرتبط بكرامة القبيلة، ولا يهدأ للعربي بال إذا لم يأخذ بالثأر ولو بعد سنوات مديدة.. لقد كانت مسألة الثأر بالنسبة إليهم شريعة مقدسة.

قيس بن الخطيم بن عديّ الأوسي «ت ٢ق. هـ.» شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبّعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلها، وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة «بُعات» التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة، من بينها:

ثَأَرْتُ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أُضِعْ

وَلَايَةَ أَشْيَاءٍ جُعِلَتْ إِزَاءَهَا^(١)

(١) قتلت من قتل أبي وجدي فلم أضيع في طلب ثأرهما حقوق شيوخ جعلوني إزاءها وقائماً بها.



ضَرَبْتُ بِذِي الْخَرَصَيْنِ رِبْقَةَ مَالِكٍ
 فَأُبْتُ بِنَفْسٍ قَدْ أَصَبْتُ شِفَاءَهَا ^(١)
 طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَ
 لَهَا نَفْذٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاءَهَا ^(٢)
 مَلَكَتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا
 يَرَى قَائِمًا مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا ^(٣)
 إِذَا سَقَمْتُ نَفْسِي إِلَى ذِي عَدَاوَةٍ
 فَإِنِّي بِنَصْلِ السَّيْفِ بَاغٍ دَوَاءَهَا
 مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تَبْقَ حَاجَةٌ
 لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قُضِيَتْ ^(٤) قِضَاءَهَا ^(٥)

-
- (١) ذو الخرصين اسم سيفه.. والربقة : العنق. يقول: قتلت بهما ثأراً، فعدتُ وقد شفيت غل صدري، وشفيت سقمي من القهر والشعور بالذلة.
- (٢) ابن عبد القيس : قاتل أبيه. والشعاع : المتفرق. أي لولا الدم الذي تفرق نتيجة الطعنة فغطى موضعها لبان الجرح بوضوح.
- (٣) بالفت في الطعنة وأوسعت الجرح الحاصل بسببها، حتى أن الرائي يستطيع أن يرى من خلالها فيعرف ما وراءها.
- (٤) لا أبالي إذا جاءني الموت بعد الأخذ بالثأر، لأنني أكون قد أنهيت غرضي من الحياة.
- (٥) البغدادى: خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٥٦.



ولم يقتصر الأمر على الثَّارِ للدم، بل كان يتجاوزُه إلى الثَّارِ للكرامة وللتعدي على الممتلكات وغير ذلك، كما في القصة التالية التي رواها ابن منظور، قال: (... وذلك أن ركباً من فُقيم^(١) خرجوا يريدون البصرة وفيهم امرأة من بني يربوع بن حنظلة^(٢) معها صبي من رجل من بني فقيم، فمرّوا بخابية من ماء السماء وعليها أمة تحفظها، فأشروعوا فيها إبلهم فنهتهم الأمة فضربوها واستقوا في أسقيتهم، فجاءت الأمة أهلها فأخبرتهم، فركب الفرزدق فرساً له وأخذ رمحاً فأدرك القوم فشقَّ أسقيتهم، فلما قدمت المرأة البصرة أراد قومُها أن يثأروا لها فأمرتهم أن لا يفعلوا، وكان لها ولد يقال له ذكوان، فلما شبَّ راضٍ الإبل بالبصرة، فخرج يوم عيد فركب ناقه له، فقال له ابن عم له: ما أحسن هيئتك يا ذكوان لو كنت أدركت ما صنعت بأهلك. فاستنجد ذكوان ابن عم له فخرجوا حتى أتيا غالباً أبا الفرزدق بالحزن متكررين يطلبان له غرةً، فلم يقدر على ذلك حتى تحمّل غالب إلى كاظمة، فعرض له ذكوان

(١) بطن من دارم من بني تميم.

(٢) من بني تميم.

وابنُ عمه فقالا: هل من بغير يباع؟ فقال: نعم، وكان معه بغير عليه معاليق كثيرة فعرضه عليهما فقالا: حظ لنا حتى ننظر إليه، ففعل غالب ذلك وتخلّف معه الفرزدق وأعوانُ له، فلما حظّ عن البعير نظرا إليه وقال له: لا يُعجبنا. فتخلّف الفرزدق ومن معه على البعير يحملون عليه ولحق ذكوان وابنُ عمه غالباً، وهو عدیل أم الفرزدق، على بغير في محمل فعقر البعير، فخرّ غالب وامرأته، ثم شداً على بغير جعثن أخت الفرزدق فعقراه ثم هربا، فذكروا أن غالباً لم يزل وجعاً من تلك السقطة حتى مات بكاظمة). ومن هنا قال جرير معرضاً بالفرزدق:

وَأَمَدَحَ سَرَاةَ بَنِي فُقَيْمٍ، إِنَّهُمْ

قَتَلُوا أَبَاكَ، وَثَارَهُ لَمْ يَقْتُلْ (١)

• الثأر في الإسلام:

وعندما جاء الإسلام قنن مسألة الثأر بالإجراءات

التالية:

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص ٩٧-٩٨.

١. وافق على اعتبار أن أثر الدم المراق ظلماً لا يخص أولياء المقتول، ولكن ليس بالصورة السابقة، بل بمعنى أن الأثر السلبي لهذا العدوان يعم الجميع في أمنهم واستقرارهم وحياتهم: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

٢. اعتبر أن القصاص حقٌ لولي الدم المباشر، كالأب مثلاً، وليس للقبيلة أو كل العائلة. فإن لم يكن له ولي، فالحاكم الشرعي هو الولي.

٣. القصاص يكون من القاتل نفسه فقط، ولا يعم أحداً من أهله أو قبيلته أو غير ذلك: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(٢).

٤. لا تمثيل في جثة المقتص منه، وقد أوصى علي عليه السلام قبيل استشهاده: (يا حسن، أبصروا ضاربي، أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن عشتُ فأنا أولى بحقي،

(١) سورة المائدة: ٣٢.

(٢) سورة الإسراء: ٣٣.

وإن مت فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا به، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»^(١).

٥. إفساح المجال أمام العفو، ولا تراجع عنه إن أقر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

في ظل كل ما سبق، كيف نفهم هذا العنوان.. ثار الله؟

• الاحتمال الأول:

أن يكون المراد من هذا العنوان أن الحسين عليه السلام هو التأثير لله. فعندما خرج الإمام الحسين لم يخرج لغرض شخصي ولا لباطل، بل خرج نصرة لله، وقد بين أسباب هذه النصرة في أكثر من موقع، ومنها ما جاء في كتابه لأشرف

(١) ابن الصباغ: الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ج ١، ص ٦٢٣.

(٢) سورة البقرة: ١٧٨.



الكوفة، وهو في كربلاء: (فقد علمتم أن رسول الله ﷺ قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام أو تاركاً لعهد الله ومخالفاً لسنة رسول الله ﷺ فعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يغير عليه بقول ولا فعل، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. وقد علمتم أن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان وتولوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله)^(١). فالإمام الحسين عليه السلام يؤكد على وجود تعدّد صارخ وكبير على دين الله وحرّماته، وأنه إنما خرج ثأراً لدين الله الذي يُذبح في كل يوم على يد هؤلاء القوم. ولذا أعلن في بداية حركته المبدأ الذي انطلق من أجله: (واني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح والنجاح في أمة جدي محمد ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وسيرة أبي علي بن أبي طالب)^(٢).

(١) ابن أعثم: الفتوح، ج ٣، ص ٩١.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، ج ٣، ص ٢٣.



هذه النصرة هي الثأر لدين الله، استجابةً لأمر الله:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

• الاحتمال الثاني:

أن يكون المراد من هذا العنوان أن الله هو وليّ دم الحسين، والمطالب بثأره والقصاص له. ولا يأتي هذا بالمعنى الشخصي، بل بمعنى أن الحسين عليه السلام لما ثار لله عزّ وجلّ، واستشهد في هذا الطريق بكل إخلاص ومع كل التضحيات التي قدّمها، فإن الله هو المطالب بدمه، وهو الذي سيحاسب القوم وكأنّه القاضي والخصم.

وفي خطبة له، يبيّن أمير المؤمنين علي عليه السلام أن تغلب بني أمية على السلطة لم يأت عن استحقاق: (فَمَا أَحْلَوْتُ الدُّنْيَا لَكُمْ فِي لَذَّتْهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رِضَاعِ أَخْلَافِهَا)^(٢) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلًا خَطَامُهَا^(٣)، قَلِقًا وَضِيئَهَا^(٤)،

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) حلّة الضرع.

(٣) زمامها متروك.

(٤) الوضين: رباط عريض يكون لرحل الناقة.

قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ^(١)،
وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللَّهُ، ظِلًّا
مَمْدُودًا إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ
فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْشُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ
عَلَيْهِمْ مَسْلُطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ).

ثم يؤكد على أَنَّ خوض بني أمية في دماء أهل بيت رسول
الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنْصَارِهِمُ الْمِمْتَلِينَ لِلْحَقِّ لَنْ يَذْهَبَ سُدًى،
وَحَتَمًا لَنْ يَكُونَ بِلَا حِسَابٍ، فَالْمَنْتَقِمُ اللَّهُ، وَهُوَ الْقَاضِي
وَهُوَ الْخَصَمُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مَبَالِغًا جَدًّا فِي
اسْتِيفَاءِ حَقِّهِ: (أَلَا إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِرًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِبًا، وَإِنَّ
الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا
يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ). ثم يبيِّن أن هذا
الملك لَنْ يدومَ لهم، لِأَنَّهُ قَامَ عَلَى بَاطِلٍ: (فَأُقْسَمُ بِاللَّهِ، يَا
بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ
عَدُوِّكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلَا
إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبْلَهُ)^(٢).

(١) المخضود: منزوع الشوك. أي لا يخافون فعله ولا يتحرجون منه.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، خ ١٠٤.

وهكذا علينا أن نفهم ما جاء في بعض النصوص من أن الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ يثارُ لجدّه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو أنه الثائر له، فالإمام المهدي بعنوانه وموقعه القيادي في الأمة الإسلامية يطرح قضية الحسين على الملأ - كما في رواية - حيث ينادي: (ألا يا أهل العالم، إنَّ جدِّي الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قتلوه عطشان)^(١). والأمر بالنسبة له ليس ثأراً كثارات الجاهليين، ولا بغرض التشفّي، ولا حباً في سفك الدماء، ولا من منطلق طائفيٍّ كإمام لطائفةٍ ضد خصومها، بل للأمر بالمعروف، والإصلاح، وتمكين العدل، واجتثاث الفساد، ومحاربة الظلم.

• القصاص الحقيقي:

وعليه، فإنَّ كلَّ مَنْ يرتبط بالله ارتباطاً حقيقياً، ويريد أن ينصر الله، لابد وأن يجعل قضية الحسين قضيته، وأن يجعل ثورة الحسين نبراساً له، وأن يُحيي ذكرى الحسين وثورته، ما دام في الأرض ظلم، وما دام في الأرض فساد، وما دام النهج الأمويُّ الذي ثار الحسين في وجهه قائماً وفاعلاً

(١) اليزدي: إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، ج ٢، ص ٢٤٣.

على الأرض. إن القصاص الحقيقي لدم الحسين ولدماء الشهداء بكرلاء، يتمثل في السعي لتحقيق الغايات التي من أجلها خرج الحسين ثائراً، في كل زمان ومكان، وليس بمجرد البكاء على الحسين، وإن كان هذا مطلوباً، وليس بمجرد زيارة الحسين، وإن كان هذا عظيماً.. والله عزوجل يقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

أما الذين ينصرون الطواغيت، والذين يوالون المستكبرين، والذين ينحنون للفاستدين، والذين ينفذون أجنداتهم، فليسوا من الطالبين بدم الحسين والثائرين له، مهما بكوا، ومهما لطموا، ومها خرجوا في مواكب العزاء، فهم شركاء في الظلمات التي يتعذب فيها المظلومون، فالحسين إنما خرج ضد الظلم وضد الفساد وضد المستكبرين. وأخيراً.. فإن نداء «يا لثارات الحسين» ليس شعاراً ضد من يختلفون معنا في الانتماء المذهبي، بل هو موجّه ضد المستكبرين وأعداء الدين ممن تجمعهم مع الذين قتلوا الحسين وحدة الأهداف والمطامع.

التوبة في مسار حركة التصحيح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ارتبطت الطبيعة البشرية بالخطأ، ولذا ارتبطت التوبة بالوجود الإنساني. فأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلُ بداية الوجود الإنساني الحالي، ومشهد التوبة الصادرة عنه بعدما عصى ربه - أيًّا كان تفسير هذا العصيان وطبيعته - حاضراً في القرآن الكريم حيث قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾^(١).

ويعود مشهد التوبة في القرآن مع بني إسرائيل وموقفهم الشنيع بعبادتهم العجل بمجرد أن تركهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عدة ليال، وبعد كل ما شاهدوه من معجزات باهرة وخلاص من نير عبودية فرعون وجنوده. إلا أن هذا المشهد يعود عنيفاً هذه المرة، ويتضمن القتل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، سواء فسرنا ذلك بالانتحار، أو بأن يقتل كلٌّ منهم الآخر، كما جاء في نص

(١) سورة طه: ١٢١-١٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٥٤.

التوراة وفي بعض الأحاديث، ففي التوراة: (وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ، وَقَالَ: «مَنْ لِلرَّبِّ فَأَيَّيَّ». فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لَأَوِي. فَقَالَ لَهُمْ: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابِ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٌ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٌ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ». فَفَعَلَ بَنُو لَأَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنْ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلًا^(١)). ولكن لماذا هذه الصورة العنيفة للتوبة؟

لربما يكون السبب أنَّ الموقف يمثل أوَّل تمرّد لهم على النبوة في بداية تحرّكهم العملي نحو تأسيس مجتمعهم الخاص، تنظيمياً وتشريعياً، فكان لا بُدَّ من موقف يساوي حجم التمرّد، ليكون ضربةً قويةً للطبيعة المتمردة التي بدأت تحكم مسيرة الرسالة الجديدة في مجتمعها، وليمنع حدوث أيّ تحرّكٍ أو تصرفٍ من هذا القبيل.

هذه الصورة من التوبة محدودة... فهي لم تستمر لتقضي عليهم جميعاً، بل ولعلها لم تتكرر.

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٣٢.

• تحريف حقيقة التوبة :

بعض الأحاديث الدخيلة الموضوعة تعبت بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وقد عبثت بعضها بمفهوم التوبة، وما زال للأسف يكررها البعض لأنها الأقرب إلى أهوائهم. مثال ذلك ما روي عن النبي ﷺ في كتب السنة والشيعة: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)^(١)، أي ما لم تبلغ الروح الحلقوم.. هل يمكن أن يقول النبي ﷺ هذا الكلام؟

الحكم والمعيار في ذلك هو القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ لاحظ عبارة «من قريب» ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ هل نحتاج إلى مزيد من التوضيح؟ ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢).

ولا يملك الإنسان أي عذر يعتذر به لو أهمل التوبة وتغافل

(١) الترمذي: السنن، ح ٣٨٤٧.

(٢) سورة النساء: ١٧-١٨.

عنها، واستغرق في المعاصي، وسوف إلى أن يفاجئه الموت:
﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ
صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾^(١).

هنا تبرز قيمة مرجعية القرآن باعتباره الكتاب الذي لا
يأتيه الباطل، وباعتباره المرجع الأول لفهم الإسلام ومعرفة
تشريعاته وأخلاقياته. ولذا نفهم لماذا قال النبي ﷺ:
(وكلُّ حديث لا يوافق كتابَ الله فهو زُخْرُفٌ)^(٢).

وجاء في دعاء وداع شهر رمضان في الصحيفة السجادية:
(أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَابًا إِلَى عَفْوِكَ وَسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ،
وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلًا مِنْ وَحْيِكَ لئَلَّا يَضِلُّوا عَنْهُ
فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

(٢) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٩.

قَدِيرٌ^(١). وهل يملك أحد العذر بالجهل بفتح باب التوبة؟ كلا، لا أعذار.. لأن الحجة قد قامت، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَمَا عُدْرُ مَنْ أَغْضَلَ دُخُولَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ)^(٢).

• الإصلاح شرط للتوبة :

جاء الإسلام فرسخ مفهوم وفعل التوبة واعتبره أمراً لازماً على المسلم حين ارتكابه المعصية، وأكد على أن الإصلاح شرط في تحقق التوبة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣). في ثمانية موارد في القرآن عند الحديث عن التوبة، اقترن الإصلاح بالتوبة، حيث لا يكفي أن تطلب العفو من الله عَزَّجَلَّ إن كنت قد أسأت لأحد، على المستوى المادي أو المعنوي.. لا بد من الإصلاح.. أو أسأت إلى الدين مثلاً بإضلال الناس.. لا بد من الإصلاح. وهذه نقطة مهمة.. الإصلاح – بما في ذلك إحقاق الحقوق – أمر

(١) سورة التحريم: ٨.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه في وداع شهر رمضان.

(٣) سورة النحل: ١١٩.

ضروري.. في أجواء القتال والنزاع، تُدعى الأطراف إلى الصلح.. هذا لا يكفي.. إن كان هناك تنازع على حق ما، لابد من إعطاء صاحب الحق حقه ولا بد من تحقيق العدالة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١). يأتي طرف ويعتدي بلا سبب على طرف آخر، ويكلفه الكثير من الخسائر.. وتتدخل بعض الجهات للصلح بينهما.. الصلح أمر جيد، ولكن لا يجب أن يكون هذا نهاية المطاف وكأن شيئاً لم يحدث.. ماذا عن حقوق المعتدى عليه التي ضاعت في هذا العدوان؟

• التوبة في العهد القديم:

مسألة إصلاح الخطأ عند التوبة لا تقتصر على تعاليم الإسلام في التوبة، إذ نجد في تعاليم اليهود ما يدل على ذلك أيضاً. ففي سفر «إشعيا»: (وَيْلٌ لِلْأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الْإِثْمِ... لَا تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ.



الْبُخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي)، البعض يحاول خداع رب العالمين
ببعض الممارسات الشكلية، وكأنه يرشي الله لينال رضاه،
ففي تعاليم اليهود يحرقون البخور ضمن طقوسهم، وهو
أمر مقدس.. البعض يتصور أن هذا يكفي لنيل رضا الله،
في الوقت الذي يرتكب فيه جرائم بحق أهله أو الناس أو
الدين. تجد نموذجاً يأكل أموال اليتامى، أو يأكل حقوق
الناس، أو يتكسب بالربا، أو يعتاش من الرشاوى ويسميها
هدايا أو عمولات، ثم يوصي بأن يُبنى له مسجد.. أو
يتبرع لبناء حسينية!! ومثل هذا النموذج نموذج آخر يهتم
بالصور الاحتفالية الدينية، يحضر المسجد كل جمعة، أو
لا يفوت ليلة في مجالس محرم، ومع هذا لا يتورع عن فعل
الحرام: (رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمُحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ
الِإِثْمَ وَالْاِعْتِكَافَ.. رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا
نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقَالًا. مَلَلْتُ حَمَلَهَا. فَحِينَ تَبْسُطُونَ
أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرْ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثُرْتُمْ الصَّلَاةَ لَا أَسْمَعُ.
أَيْدِيكُمْ مَلَانَةٌ دَمًا).. ما الحل، كيف يجب أن تكون التوبة؟
(اغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اغْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا



عَنْ فَعْلٍ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فَعَلَ الْخَيْرِ. اَطْلُبُوا الْحَقَّ. اَنْصِفُوا
الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِبُيْتِهِمْ. حَامُوا عَنِ الْاَرْمَلَةِ^(١).

• حركة التوابين:

يا ترى، لو أن أهل الكوفة بعد استشهاد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ
اكتفوا بالدعاء والاستغفار والبكاء وطلب العفو من الله
والاعتكاف في المساجد لأنهم خذلوا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أكان
هذا يكفي لتحقيق توبتهم؟

التوبة الحقيقية جاءت على يد أصحاب «حركة
التوابين»، لا بصورة ندم وذكر استغفار فقط، بل من خلال
الموقف العملي المتمثل في الثورة على الحكم الأموي بقيادة
الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي البالغ من العمر ٩٣
سنة. وهكذا ينبغي أن تكون التوبة بحجم المعصية، وهكذا
يجب أن تكون مقرونة بالإصلاح.. قال أبو مخنف: (... رأوا
أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في قتله إلا بقتل مَنْ قتله،
أو القتل فيه)^(٢).

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر إشعياء، الإصحاح ١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٩٠.



وبرواية حميد بن مسلم القائل بأنه شهد وحفظ كلام سليمان بن صرد في كل جمعة حيث كان يكرر على التوايين قوله بعد لومهم على عدم نصرتهم للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أَلَا انْهَضُوا فَقَدْ سَخَطَ رَبُّكُمْ، وَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْحَلَائِلِ وَالْأَبْنَاءِ حَتَّى يَرْضَى اللَّهُ، وَاللَّهُ مَا أَظْنَهُ رَاضِيًا دُونَ أَنْ تَنَاجِزُوا مَنْ قَتَلَهُ، أَوْ تَبِيرُوا. أَلَا لَا تَهَابُوا الْمَوْتَ، فَوَ اللَّهِ مَا هَابَهُ امْرُؤٌ قَطُّ إِلَّا ذَلْ، كُونُوا كَالْأُولَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾^(١)، فما فعل القوم؟ جثوا على الركب والله، ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء حَتَّى حِينَ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُنْجِيهِمْ مِنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَى الْقَتْلِ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ قَدْ دُعِيتُمْ إِلَى مِثْلِ مَا دُعِيَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ؟! اشْحَذُوا السُّيُوفَ، وَرَكَّبُوا الْأَسْنَةَ، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾^(٢).

وهكذا خرج قرابة ٤٠٠٠ مقاتل من الكوفة نحو الشام،

(١) سورة البقرة: ٥٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٩٠-٣٩١.



وتلاحموا مع أضعافهم من الجيش الأموي، وأبدوا كل بطولة حتى استشهد كثير منهم في ساحة المعركة، بمن فيهم أمير التوابين. وهذه الحركة وإن لم تنجح في تحقيق نصر ميداني، إلا أنها دقت مسماراً آخر في نعش الدولة الأموية، وأنعشت في المسلمين روح مقاومة الباطل والفساد.

ومن المشاهد الرائعة في حركة التوابين أنهم: (لما انتهى سليمان بن صرد وأصحابه إلى قبر الحسين نادوا صيحة واحدة: يا رب، إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أننا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلّون عليه ويبكون ويتضرعون، فما انفك الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه حتى صلوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقاً، ثم ركبوا فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين، فيقوم عليه فيترحم عليه ويستغفر له. قال الراوي: فوالله



لرأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود... ثم قال سليمان: الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم إذ حرمتها معه، فلا تحرمنا فيه بعده^(١).

• صدق التوبة :

إن التوبة تمثل الحركة التصحيحية في حياة الإنسان المذنب، وبوابة العبور إلى رضوان الله عزَّجَل، بشرط أن يكون الإنسان صادقاً في توبته، مُقبلاً على ربه، مُدركاً حَجْم الخطيئة التي اقترفها، تماماً كما أدرك الحر بن يزيد الرياحي حجم الخطيئة التي ارتكبها بمنعه الحسين من الوصول إلى الكوفة، فما استكان في توبته حتى نصر الحسين بالموقف العملي فأصلح ما كان قد أفسده، وكما أدرك التوبون حجم خطيئتهم فما اكتفوا بالدعاء وطلب العفو من الله، بل أثبتوا ذلك بالموقف العملي الذي رسموا معالمة بدمائهم وتضحياتهم.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٢.



التضحية خلقُ أصيل



من العناوين الحاضرة بكل وضوح في كربلاء عنوان
التضحية.. التضحية في العناوين الكبرى، كالنفس والمال
والولد من أجل المبادئ. والتضحية في التفاصيل أيضاً،
كالعباس حين رفض أن يشرب من الماء - على الرغم من
العطش والإجهاد - موسياً أخاه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ فِي
المخيم.



• تعريف لغوي وقرآني:

ولو أردنا أن نعرّف التضحية فسنقول أنها «تخلُّ إرادي واستغناءً اختياري وتنازلٌ بعزيمة وعقلانية عن ميزة أو منفعة أو لذة أو مُلك شخصي لغاية سامية نبيلة». ولورجعنا إلى المعاجم اللغوية القديمة، فلن نجد للتضحية معنىً كالذي نستعمله فيه، المعنى الذي يختزن مفهوم الإيثار، والبذل للآخرين دون مقابل، وتقديم الآخرين على النفس.

وهكذا لو إذا رجعنا إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فلن نجد استعمالاً لهذه الكلمة بهذا المعنى، بل تستعمل في ذبح أو نحر الأنعام.

المعنى الأصلي لكلمة «ضَحَى» كما في لسان العرب:
(ضَحَى: وَضَحَوَة؛ وقت ارتفاع النهار)^(١).. قال الله عزَّجَلَّ:
﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^(٢).

وحيث تشتد الحرارة بارتفاع النهار استُعملت كلمة «يضحى» للدلالة على أن الشخص يتأذى من حرارة الشمس.

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص٤٧٥.

(٢) سورة الضحى: ١-٢.



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(١)، أي: لا يؤذيك حر الشمس.

وإذا ذبحت الأنعام أو نُحِرَتْ وقت الضحى كما في مناسك الحج من يوم العاشر من ذي الحجة، سُمِّيَتْ: «أضحية». ولذا الاستعمال القديم لكلمة «تضحية» يعني ذبح أو نحر الأنعام. وفي زمن متأخر جداً توسَّع العرب في استعمال كلمة «تضحية» لتشمل المعنى الذي نستعمله بكثرة للدلالة على الإيثار، والبذل للآخرين دون مقابل، كقولنا: «الأم تضحى من أجل أبنائها». أما قبل ذلك فنجد كلمات الإيثار، والفداء، والتقديم، بدائل عن كلمة «تضحية».

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المفهوم في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

(١) سورة طه: ١١٩.

(٢) سورة الحشر: ٩.



أونجد استعمالاً لعبارات لها هذه الدلالة، وذلك من قبيل
ما قاله المتنبي بحق سيف الدولة الحمداني^(١)، وقد وصف
المتنبي - المعاصر له - روح التضحية الحربية فيه كالتالي:
الجيشُ جيشك غير أنَّك جيشه

في قلبه ويُمِنه وشِماله
كلُّ يُريدُ رجاله لحياته
يا مَنْ يُريدُ حياته لرجاله^(٢)

• دوافع التضحية :

تتعدد الدوافع لدى الناس نحو التضحية، ويمكن تقسيمها
كالتالي:

١. الحرص على التحلي بمكارم الأخلاق.. «دافع روحي».
٢. الحب، الفطري أو الغرائزي.. حب الوالدين للأبناء،

(١) سيف الدولة الحمداني من الأمراء الأبطال الذين دافعوا عن حدود
الدولة الإسلامية ضد غزوات الروم في القرن الخامس الهجري، وكان
حاكم الدولة الحمدانية، ولفروسيته واهتمامه بذلك جَمَعَ مما كان يعلق
بشبابه من غبار الحروب التي خاضها بنفسه مقدار لبنة وأوصى أن
تُوضَعَ تحت رأسه في قبره.



أو حب للجنس الآخر.. «دافع عاطفي».

٣. معرفة قيمة التضحية ونتائجها العامة والشخصية..
«دافع عقلي».

٤. الرغبة في الحصول على العطاء الأخرى.. «دافع
إيماني».

٥. قوة الشعور بالانتماء.. «دافع اجتماعي».

والإخلاص في التضحية مهم، سواء كان الدافع حباً أو
رغبة في عطاء أخرى أو تمسكاً بمكارم الأخلاق... وأياً كان
الدافع للتضحية، إياك أن تتوقع المقابل، وإلا:

١. سَتُتْعَبَ نَفْسُكَ، خاصة إن كنتَ ممن يبالفون في
التضحية، لأنك قد لا تجد تقديراً أو تضحية موازية.

٢. أو ستكون لك ردة فعل تمتنع من خلالها عن التضحية
في موارد أخرى.

٣. أو تفسد علاقتك مع الآخر بالنزاع أو المن.

٤. أو ستدفع الناس للابتعاد عنك خوفاً مما سبق، لأنهم
يدركون سلفاً أنك ستطالبهم بالمثل، وهم غير قادرين عليه.



• قيمة التضحية :

قيمة التضحية تبرز من خلال أنها ضد «الأنانية» المبغوضة.. فالإنسان لا يعيش بمفرده في هذه الحياة، لذا فإن هناك تنافساً بين الأفراد فيما يحتاجون إليه أو يرغبون فيه.. على الطعام.. على الطريق الذي يسلكونه.. على حق معين.. إلخ. وهنا يكون الإنسان بين خيارين، أنا.. أم الآخر؟

الأنا قوية، المصلحة الشخصية قوية.. ولذا من يعارضها ويُقدِّم الآخر على نفسه، فهذا يعني أنه قاوم نفسه وتغلب عليها.. لذا تكون له قيمة عليا. وكلما كان تقديم الآخر في أمر أكثر أهمية أو في ظروف أشد، كلما ازدادت قيمة التضحية.

• مجالات التضحية :

للتضحية مجال في كل تفاصيل حياتنا.

١. في إطار العلاقات الاجتماعية: في بيت الزوجية مثلاً، تعتبر التضحية من قبل الزوجين من أهم عوامل نجاح العلاقة بينهما: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا



لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١١﴾. مودة ورحمة ... إذاً لابد من تضحية وإيثار، لأن من لوازم المودة والرحمة تحقق التضحية.

حاذر أن تخلط بين التضحية وأداء أو تحمّل المسؤولية.. أنت كأب مسؤول عن تأمين رزق أبنائك.. هذا تحمّل للمسؤولية وليس تضحية.. الأم مسؤولة مثلاً عن صحة أبنائها.. فعلاجها لأبنائها أداء لوظيفة وليس تضحية.. هكذا الزوج مسؤول عن النفقة على زوجته.. هذا أداء واجب وليس تضحية.. والخلط بينهما قد يؤدي أحياناً إلى وقوع نزاع بين الأطراف.

الزوج الذي يضحّي براحته واحتياجاته الشخصية من أجل إسعاد زوجته وأبنائه، فهم أولى عنده من نفسه، يكبر في عيونهم يُقدّر له ذلك من قبلهم.. ويدفعهم إلى مقابلة هذه التضحيات بالحُسنَى.. الزوجة باحترام وتقدير الزوج والتضحية بالمقابل.. وتدفع الأبناء إلى البر والإحسان إلى أبيهم.. إلا اللهم إذا كنا نتحدث عن زوجة خبيثة النفس



عديمة الشعور.. فهذا أمر آخر. وهكذا الزوجة التي تُقدّم التضحيات وتتخذ قرارات قد تكون على حساب طموحاتها الشخصية وتجد أن سعادتها في إسعاد أسرتها، وهي أولويتها، تحتل مكانة عظيمة في قلوب أفراد أسرتها.. قد لا تظهر في نفس الوقت.. ولكن فلتثق أنها تحضر عظمتها في قلوبهم.

للأسف اليوم عن طريق بعض البرامج ودورات تنمية الذات، يتم التركيز فيها على الأنا بقوة، إلى درجة باتت التضحية «سذاجة وخسارة وغباء» في مفهوم الزوج والزوجة.

الأنا المتضخمة يمكنها أن تدفع قوياً نحو تفكيك الأسر بالطلاق والنزاعات البينية المستمرة، فالزوج لا يفكر إلا بإشباع رغباته، ويتنقل كل يوم من امرأة إلى أخرى تحت عنوان الزواج المؤقت، وأسرته آخر اهتماماته.

والزوجة لا تريد من زواجها إلا ما يحقق لها أحلامها الوردية في السفر، وعمليات التجميل غير المبررة، والإنفاق ببذخ، وأمثال ذلك.



٢. في إطار العمل الرسالي، ومسؤولية الموقع الذي يشغله الإنسان وظيفياً. ينقل لنا ابن عباس - كما في أمالي الصدوق - أن النبي ﷺ لما مرض مرضه الذي توفي على إثره وكان عنده بعض أصحابه قال: (يا بلال، هلمّ عليّ بالناس. فاجتمع الناس، فخرج رسول الله (ص) متعصباً بعمامته، متوكّياً على قوسه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: معاشر أصحابي أي نبي كنت لكم؟) كأن النبي ﷺ يريد أن يطمئن قبل أن يغادر الدنيا أنه قد أدى مسؤولياته على أكمل وجه، خوفاً من أن يأتي أحدهم يوم القيامة ويتهمه بالتقصير (ألم أجاهد بين أظهركم؟ ألم تكسّر رباعيتي؟ ألم يُعَضَّر جبیني؟ ألم تسل الدماء على حرّ وجهي حتى كنفت لحيتي؟ ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ قالوا: بلى يا رسول الله، لقد كنت لله صابراً، وعن منكرٍ بلاءٍ ناهياً، فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. قال: وأنتم فجزاكم الله). ثم يتحوّل النبي إلى أمر آخر كان يُقلقه قبل مغادرة الدنيا، وهو أن يكون قد ظلم أحداً، بحيث يُطالب

بالقصاص في الآخرة (ثم قال: إِنَّ رَبِّي عَزَّجَلَ حَكَمَ وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَجُوزُهُ ظُلْمَ ظَالِمٍ). هذا النبي ﷺ بكل عظمته يتكلم بهذا المنطق.. يخاف أن يوقفه الله ويحاسبه على ظلم.. وحاشاه! وما أكثر ما نُمْنِي أَنْفُسَنَا بالشفاعة في الآخرة في مقابل ظلمنا للآخرين.

النبي ﷺ يتكلم هنا وفق القاعدة القرآنية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١) ... (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٢). ونحن نتكلم وفق أهوائنا وما نُمْنِي به النفس، وكأننا قد ضمنّا الشفاعة! (فناشدتكم بالله، أيُّ رجل منكم كانت له قبل محمد مَظْلَمَةٌ إِلَّا قَامَ فليقتص منه، فالقصاص في دار الدنيا أحبُّ إليَّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء، فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سودة بن قيس فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله

(١) سورة النساء: ١٢٣.

(٢) سورة الزلزلة: ٧-٨.



إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتُك وأنت على ناقتك
العضباء، وبيدك القضيبُ الممشوق، فرفعتَ القضيب
وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأ،
فقال: معاذ الله أن أكون تعمدت. ثم قال: يا بلال قم إلى
منزل فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق، فخرج بلال وهو
ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يُعطي
القصاص من نفسه قبل يوم القيامة؟ فهذا محمد يُعطي
القصاص من نفسه قبل يوم القيامة! وطرق بلال الباب
على فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ وهو يقول: يا فاطمة قومي! فوالدك
يريد القضيب الممشوق، فأقبلت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ وهي
تقول: يا بلال وما يصنع والدي بالقضيب، وليس هذا
يوم القضيب؟ فقال بلال: يا فاطمة أما علمت أن والدك
قد صعد المنبر وهو يودع أهل الدين والدنيا، فصاحت
فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ وقالت: واغماء لغمك يا أبتاه، من للفقراء
والمساكين وابن السبيل يا حبيب الله، وحبيب القلوب؟
ثم ناولت بلالاً القضيب، فخرج حتى ناوله رسول الله
فقال رسول الله ﷺ: أين الشيخ؟ فقال الشيخ: ها أنا ذا



يا رسول الله بأبي أنت وأمي فقال: تعال فاقتصص مني حتى ترضى، فقال الشيخ، فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عليه السلام عن بطنه، فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله عليه السلام: يا سودة بن قيس أتعضو أم تقتصص؟ فقال: بل أعضو يا رسول الله، فقال: اللهم اعف عن سودة ابن قيس، كما عفى عن نبيك محمد^(١).

٣. في إطار الإحساس الإنساني وإن لم نعرف الآخر ولن نلتقي به أبداً. عن الحسن عليه السلام: (رأيت أُمِّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راکعة ساجدة حتى اتّضح عمود الصّبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدّعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء فقلت لها: يا أُمّاه لم لا تدعين نفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدّار)^(٢).

(١) الصدوق: الأمالي، ص ٧٣٣-٧٣٥.

(٢) البروجردی: جامع أحاديث الشيعة، ح ١٠٢٤.

٤. التضحية على مستوى ما يؤمن به الإنسان. ففي كتاب
 للأمير المؤمنين علي عليه السلام إلى أهل مصر أرسله مع مالك
 الأشتر لما ولاه إمارتها: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ
 مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيِّمًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ فَلَمَّا
 مَضَى ﷺ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ
 يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تَزْعُجُ هَذَا الْأَمْرَ
 مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَا أَنَّهُمْ مُنْحُوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ
 فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِشَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكَتُ
 يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ
 يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دَيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ
 الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ
 عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ
 يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ
 فَهَضَمْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاطْمَأَنَّ
 الدِّينُ وَتَنَهَّنَهٗ ^(١)). هل من السياسيين من يضحى اليوم
 بمصالحه لو وجد أن المصلحة العامة تقتضي ذلك؟

(١) الرضي: نهج البلاغة: الكتاب ٦٢.



• مع تضحية الحسين:

وهكذا نجد ابنه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الموقف الصعب الذي لا نظير له.. يضحي بكل ما يملك، وبأقرب الناس وأحب الناس إليه، من أجل الرسالة التي حمل مسؤوليتها، لنجده في يوم العاشر من المحرم، وحوّله أجساد أهل بيته وأحبابه وأنصاره.. أي شباب كانوا وأي شبيبة؟ خيرة الناس وعباد أهل الأرض. منهم مَنْ يذكّره بجده رسول الله خَلَقًا وَخُلُقًا.. ومنهم مَنْ يذكّره بأبيه عليّ شجاعةً وبأساً.. ومنهم مَنْ كان وديعة أخيه الحسن. كيف يُمكن لأبٍ أَنْ يتحمّل مشهد مقتل ابنه بالصورة التي استشهد فيها علي الأكبر؟ كيف يمكن لأب أن يصبر على نحر طفله الرضيع بين يديه ثم ينهض ليقاتل بكل بأس؟ كيف يمكن لأخ أن يفقد أخاً كالعباس قمر بني هاشم ويراه مُقَطَّع اليدين مفلوق الهامة، ثم يشدّ على القوم مذكراً ببطولات أبيه وشجاعته؟ لو أنّ كل واحدة من هذه تفرّد بها أحدنا ومات كمداً لما كان بملوم، فكيف بالحسين وقد اجتمعت عليه كل هذه الشدائد؟ ولكنه سبط رسول الله وابن أمير المؤمنين وسيد شباب أهل الجنة.. وحريّ



بمن كان هكذا أن يقود نفسه في تلك اللحظات الحاسمة لمواجهة أعدائه بكل شجاعة وبأس وقوة، حتى قال القائل: (فما رأينا مكثوراً قط أربط جأشاً منه. إن كان ليقاتلهم قتال الفارس الشجاع. وإن كان ليشد عليهم فينكشفون عنه انكشاف المعزى إذا شد فيها الأسد. فمكث ملياً من النهار والناس يتدافعونه ويكرهون الإقدام عليه. فصاح بهم شمر بن ذي الجوشن: ثكلتكم أمهاتكم ماذا تنتظرون به؟ أقدموا عليه. فكان أول من انتهى إليه زرعة بن شريك التميمي، فضرب كتفه اليسرى. وضربه حسين على عاتقه فصرعه. وبرز له سنان بن أنس النخعي فطعنه في ترقوته. ثم انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره. فخر الحسين صريعاً..)^(١).

(١) الطباطبائي: ترجمة الإمام الحسين من طبقات ابن سعد، ص ٧٤-٧٥.



مخاطر الاستعجال

قال عَزَّجَلَّ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾^(١)، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢).

قال ابن منظور: (العَجَلُ والعَجَلَةُ: السرعة.

(١) سورة الأنبياء: ٣٧.

(٢) سورة الإسراء: ١١.



وَالِاسْتِعْجَالِ وَالِإِعْجَالِ وَالتَّعَجُّلِ وَاحِدٌ: بِمَعْنَى الْاسْتِحْثَاتِ
وَطَلَبِ الْعَجَلَةِ^(١).

• نماذج من التفسير:

وقد روى الطبري في تفسيره للآية الأولى عن ابن
أبي نجيح عن مجاهد، في قول الله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ
عَجَلٍ﴾ قال: (قَوْلُ آدَمَ حِينَ خُلِقَ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ آخِرَ النَّهَارِ
مِنْ يَوْمِ خَلْقِ الْخَلْقِ: فَلَمَّا أَحْيَا الرُّوحَ عَيْنِيهِ وَلِسَانَهُ
وَرَأْسَهُ، وَلَمْ تَبْلُغْ أَسْفَلَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ اسْتَعْجِلْ بِخَلْقِي قَبْلَ
غُرُوبِ الشَّمْسِ)^(٢). وأود تسجيل عدة ملاحظات على هذه
الرواية:

١. مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ - وَيُقَالُ: جُبَيْرٌ - «٢١-١٠٤ هـ» مولى
فارسي الأصل. فقيه كثير الحديث ومفسر. روى مجاهد
الكثير عن ابن عباس. وله كتاب يسمى «تفسير مجاهد»،
وكان من منهجه في ذلك الكتاب أنه كان يسأل أهل الكتاب
ويُقَيِّدُ فيه ما يأخذهم، ومما يذكر عنه أنه كان شغوفاً

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ١٠، ص ٤٧.

(٢) الطبري: تفسير القرآن، ج ١٨، ص ٣٩.



بالغرائب والأعاجيب. روى عنه عبد الله بن أبي نجيح، يلقب بالإمام المفسر، كان مفتي أهل مكة بعد عمرو بن دينار. وفي كتاب «طبقات المدلسين»: (عبد الله بن أبي نجيح المكي المفسر أكثر عن مجاهد وكان يدلس عنه)^(١)، والتدليس: أن يروي الراوي عن من سمع منه ما لم يسمعه، بلفظ يوهم السماع.

٢. في كثير من الأحيان يتم الرجوع إلى كتب التفسير كتفسير الطبري، ويُنقل ما يرويه في تأويل الآيات أو تفسيرها عن مجاهد أو ابن عباس أو قتادة أو سعيد، ونتصور أنها روايات نبوية وهي ليست كذلك.

٣. يتم إغفال منهج بعض هؤلاء المفسرين كمجاهد الذي كان يسأل أهل الكتاب ويقيده في تفسيره ما يأخذه عنهم دون تحقيق، لاسيما بلحاظ جهلهم بالعبرية أو الآرامية. ومن خلال تتبعي يندر أن ينقل الكتّابيون كلاماً صحيحاً عن كتبهم، بل كانوا يخدعون السائلين أو المستمعين، والأمثلة كثيرة.

(١) ابن حجر: طبقات المدلسين، ص ٣٩٠.

٤. مع وجود التدليس، كيف يمكن الوثوق بـ «الإمام المفسر»؟ لاسيما بلحاظ أهمية دراسة الأسانيد.

٥. الشغف بالغرائب والعجائب يدلّ على خلل في المنهج العلمي واحتمالية الوقوع في فخ الأساطير، فكيف يمكن بعد ذلك الوثوق بمرويات؟ لاحظ ما جاء في كتاب «خريدة»^(١) العجائب وفريدة الغرائب» تحت عنوان «بئر بابل» قال الأعمش: (كان مجاهد يحب أن يسمع الأعاجيب ويقصدها، وكان لا يسمع بشيء من ذلك إلا توجه إليه وعابنه. فأتى بابل فلقى الحجاج فقال له: ما تصنع هنا؟ قال؛ أريد أن تسيرني إلى رأس الجالوت، وأن تريني موضع هاروت وماروت، فأمر به فأرسل إلى رجل من أعيان اليهود وقال: اذهب بهذا فأدخله على هاروت وماروت ولينظر إليهما، فانطلق به حتى أتى موضعاً فرفع صخرة فإذا هو شبه سرداب، فقال له اليهودي: انزل معي وانظر إليهما ولا تذكر اسم الله تعالى، قال مجاهد: فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت إليهما وهما

(١) الخريدة: اللؤلؤة التي لم تُثقب.



كالجبلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في أعناقهما إلى ركبتيهما. فلما رآهما مجاهد لم يملك نفسه أن ذكر اسم الله تعالى. قال: فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد، فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا، فقال اليهودي لمجاهد: أما قلت لك لا تفعل، كدنا والله نهلك^(١).

٦. المصيبة الأخرى أن الأعمش الراوي لهذا الخبر بدوره كان يدلّس على مجاهد. قال أبو حاتم: (الأعمش قليل السماع من مجاهد وعامة ما يروي عن مجاهد مدلس) وقد اتفق أغلب أئمة الجرح والتعديل على (أنه لم يسمع منه إلا أحاديث يسيرة معدودة، والأخرى قد سمعها من قوم ضعفاء)^(٢).

٧. والطريف أن ابن حبان بعد أن قال عن مجاهد: (كان فقيهاً ورعاً عابداً متقناً) صنّفه ضمن الضعفاء في كتابه! وقال مُرّة: (أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٦٢.

(٢) اليماني: النكت الجياد المنتخبة من كلام شيخ النقاد، ص ٢٧٧.



به) ثم يقول: (أحاديث مجاهد عن علي مراسيل، لم يسمع منها شيئاً) ^(١) أي أنه كان مدلساً!

٨. المعطيات العلمية الحديث تتعارض بوضوح مع ما جاء في تأويل مجاهد للآية.

٩. وقوع الطبري في فخ تلك الأقوال حيث اختار في تأويل الآية ما يلي: (والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عمن قال معناه: خُلق الإنسان من عجل في خلقه: أي على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بُودر بخلقه مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح) ^(٢).

وفي المقابل لاحظ قول المفسر عندما يعتمد في تفسيره على منهج يمزج بين مقابلة القرآن بالقرآن ومراجعة المرويات والأقوال في الآية وإعمال العقل في كل ذلك. قال العلامة الطباطبائي: (كناية عن بلوغ الإنسان في العجل، كأنه خُلق من عجل ولا يعرف سواه. نظير ما يقال: فلان

(١) المخزومي: تفسير مجاهد، ص٧، المقدمة.

(٢) الطبري: تفسير القرآن، ج١٨، ص٣٩.



خير كله، أو شر كله، وخلق من خير أو من شر. وهو أبلغ من قولنا، ما أعجله وما أشد استعجاله، والكلام وارد مورد التعجب^(١). وقال آية الله مكارم الشيرازي: (إنّ تعبير ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ في الحقيقة نوع من التأكيد، أي إنّ الإنسان عجول إلى درجة كأنه خلق من العجلة، وتشكّلت أنسجته ووجوده منها)^(٢).

• استعجال الأحكام:

صفة العجلة من طبيعة خلق الإنسان وتكوينه، إذ يغفل أو يتغافل عن الشروط والمقدمات المطلوبة لتحقيق الأمر، ويريد القفز عليها ليصل إلى النتيجة، التي ربما لا يصل إليها أحياناً بسبب هذا الاستعجال.

وهكذا يستعجل الإنسان في إصدار الأحكام، وهو الأمر الذي لم ينج منه حتى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمَ

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير لقرآن، ج ١٤، ص ٦٧.

(٢) الشيرازي: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ١٦٧.



بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴿۱﴾ انْتَبَهَ إِلَى اسْتِعْجَالِهِ فِي إعْطَاءِ رَأْيِهِ قَبْلَ الاسْتِمَاعِ إِلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ، فَلَرُبَّمَا لَدَيْهِ عَذْرٌ فِي مَا فَعَلَ، وَلَرُبَّمَا كَانَ الْأَوَّلُ كَاذِبًا أَوْ مَخْطِئًا، وَلِذَا تَرَجَعَ النَّبِيُّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ كَلَامِهِ بِسُرْعَةٍ: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ، يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١).

ونلاحظ الاستعجال في قصة موسى وصاحبه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا،



قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١﴾ سَتَسْتَعْجِلُ فِي إِصْدَارِ
أَحْكَامِكَ ﴿٢﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٣﴾ لَأَنْ
ظَاهِرَ الْأُمُورِ سَيَخْدَعُكَ ﴿٤﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا
وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا، فَاِنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي
السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
إِمْرًا ﴿٥﴾ اسْتَعْجَلَ وَأَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْوَعْدِ الَّذِي
قَدَّمَهُ ﴿٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ لَا
تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧﴾ (١)

ويتكرر المشهد ٣ مرات.

وهكذا نجده عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أخيه هَارُونَ عند صنع العجل
حيث يتهمة بالتقصير أو العصيان: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ
يَبْنُومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ ثم قَدَّمَ لَهُ التبرير
المقنع الذي خفي عليه أولاً ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٢).

(١) سورة الكهف: ٦٦-٧٣.

(٢) سورة طه: ٩٢-٩٤.



هذا جزء من الطبيعة البشرية للأنبياء: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.. ومن هنا، إذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد يستعجلون في إصدار الأحكام أو إبداء الرأي، فكيف بنا نحن؟ وهذا يستدعي منا الانتباه أكثر وأكثر.

• استعجال المشركين:

كانت المشكلة التي تواجه الأنبياء أحياناً هي استعجال الناس بفرض الدعوة والأفكار المقدمة من قبلهم، فنجد مواقف السخرية والاستهجان والاحتقار حاضرة قبل التفكير، لكونهم واستئناسهم وتقديسهم لما اعتادوا عليه. ولربما يكتشف هؤلاء القوم خطأهم بعد ذلك، ولكنهم يكابرون.. كيف يمكن لهم أن يتراجعوا عن أخطائهم؟ سمعتهم.. مكانتهم.. شخص كعمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي الملقب بأبي الحكم، ولقبه النبي بأبي جهل، كيف يمكن له أن يقرّ بالخطأ وأنه استعجل في إصدار حكمه؟

ولذا قال الله عَزَّجَلَّ واصفاً هذا النموذج من الناس بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فتمسك به والتزمه اعتزازاً به، فلم يستمع للنصائح، ولم يأخذ



بالمواعظ؛ بل امتدّ في طغيانه واستعلى واستكبر في عملية
إيحاء كاذب بأنه فوق مستوى النقد والشبهات ﴿فَحَسْبُهُ
جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(١).

• نحن والعجلة :

ومن هنا أراد الله عزَّجَلَّ أن يوجهنا إلى عدم تكرار هذا
الخطأ في سلوكنا وأن نتأني... ولا يخص هذا ما له علاقة
بالدين، بل يشمل ما له علاقة بالحياة الزوجية والصدقة
والعلاقات السياسية والاجتماعية وغير ذلك. ولو أردنا تقييم
سلوكنا، فإننا سنجد أننا غير بعيدين عن هذه السلبية، من
خلال إصدارنا الأحكام على المواقف، وعلى الناس، وعلى
الأفكار الجديدة حتى قبل أن نعرف أسبابها أو أدلتها.

١. وقد يكون أحياناً لسوء الظن بالآخر أو المشاعر
السلبية تجاهه مدخلية في التسرع في الحكم، وقد نبهنا الله
إلى خطأ ذلك إذ قال عزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ٢٠٦.

(٢) سورة المائدة: ١١.



٢. كما قد يكون للأحكام الكلية المسبقة التي نصدرها على المجاميع البشرية، كأتباع دين معين، أو مذهب معين، أو قومية معينة، أو قبيلة معينة، دور في الاستعجال في إصدار الأحكام أيضاً.

٣. كما قد يكون حب الآخر، أو الإعجاب به، أو الرضا عنه، أو الانبهار بظاهره الخارجي، من دواعي الاستعجال في الحكم بالموافقة والقبول، دون دراسة متأنية لواقع الشخص أو الأمر وكقول الإمام الشافعي:

عَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

ولكن تأتي الصدمة حين تتضح الحقيقة المرأة، حين نصطدم بالواقع السلبي لما استعجلنا فيه، وقد يكلفنا الخلاص منه الكثير الكثير، وذلك من قبيل الاستعجال في اختيار زوجة المستقبل أو «العكس»، خاصة بلحاظ كثرة التفاصيل المؤثرة في نجاح الحياة الزوجية اليوم.

في الماضي كان يمكن للمرأة أن تقبل بأي رجل.. وتصبر



على أذاه.. وسوء أخلاقه.. ومزاجه.. وفقره.. وأطباعه.. ولذا
عندما يتم عقد الزواج لربما يكون من دون أن تراه، ولربما
لم يرها هو، واعتمد في ذلك على اختيار أمه لها.. وذوق
النساء مختلف تماماً في تقييم الجمال عن ذوق الرجال.
يوصي الشاب أمه عند البحث أنه يريد لها «رشيقة القد، لها
عيون الغزلان، وحواجب كهلال شهر رمضان، وخدود مثل
شقائق النعمان، وفم كخاتم سليمان، ووجه كالقمر مدور،
وسيقان سبحان من صور... إلخ»، ثم تقع الصدمة ليلة
الدخلة.. ولكن مع هذا تستمر الحياة الزوجية، ويرضى كل
منهم بالآخر.

الأمر في هذا الزمان مختلف تماماً، فالفتاة قد تهتم بأدق
التفاصيل، وتؤثر أمور كثيرة ترتبط بأفكاره وأجوائه وطريقة
حياته على نجاح الحياة الزوجية واستمرارها.. والعكس
صحيح.. فالشاب كذلك قد يدقق على كثير من التفاصيل.

أحدهم أرسل السؤال التالي طالباً إجابة شرعية: (أنا
شاب متزوج من خمسة أشهر لكنني غير قادر على الانسجام
مع زوجتي ذلك لقصرها قصرًا فاحشاً حيث إنني كنت



أبحث عن فتاة تناسبني في الطول، فلما وصفها لي أهلي قبل الزواج قالوا لي إنها طويلة، ولما نظرت إليها النظرة الشرعية قبل العقد كانت متزينة، ومسرحة لشعرها وتلبس الكعب العالي وقد لاحظت ذلك في أيام الخطوبة لكن توقعت أن يتحسن شعوري نحوها بعد الزواج فلما تزوجتها ورأيت شكلها الحقيقي وقصرها ولمست طريقة تفكيرها التي تختلف تماما عن طريقة تفكيري كرهتها وأصبحت لا أطيق الحديث معها، حتى إنها أحست بذلك وقالت لي : إنها تشعر بأنني غير مقتنع بها وأنني لا أطيقها، وأحيانا أدخل عليها وهي تبكي، فیتقطع قلبي لأجل الجريمة التي ارتكبتها في حقها، فهي لم تضرنني في شيء، بل على العكس وضعتني فوق رأسها، وأحببني حبا جماً، لكن ماذا أصنع؟ فأنا أحاول جاهداً إقناع نفسي بها لكن دون جدوى، حتى أصبحت تساورني فكرة الطلاق حتى أريحها وأريح نفسي لكنها حامل الآن، وتارة أفكر بالزواج من أخرى، أرجوكم أرشدوني إلى حل^(١).



وبلحاحظ كثرة حالات الطلاق في مجتمعنا، ومن أسبابه الرئيسة عدم اتضاح الصورة الحقيقية لكل طرف عند الآخر إلا بعد الاحتكاك الحقيقي بينهما والذي تم بعد الزواج، فإن هذا الأمر يدعونا كأولياء أمور، ويدعو الشباب المقبلين على الزواج إلى التريث وعدم الاستعجال، ولإعطاء الطرفين فرصة لدراسة بعضهما البعض.

عندما تحدثت عن العاطفة في عنوان سابق، تطرقت إلى الحب من أول نظرة، وقلت هناك أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل.. فالحب عاطفة، والعاطفة لا تتكون إلا بعد مرور فترة من الزمن وعبر تراكم الخبرات والتجارب.. أما ما حصل في تلك اللحظة فهو انفعال.. إعجاب.. أو تحرك غريزي للجمال.. إلخ.

الحب شيء عميق لا يأتي من أول نظرة.. ولذا عندما يتم الخلط بين الأمرين، ويتم الزواج بناء على ذلك، ويُسبِع الشاب غريزته، تهدأ النفس، وتتجلّى الصورة، ولربما تبرد المشاعر، لتبدأ الخلافات وقد تنتهي بالطلاق.

ومن أمثلة الاستعجال، ما يقع من الناس عند الدعاء،



نتيجة الفهم الخاطيء لقوله عزَّجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) تصوِّراً منهم أن وظيفة الدعاء كمصباح علاء الدين، تطلب فيُستجاب لك فوراً.. وهذا خطأ كبير.. فلربما تطلب ما ليس في صالحك.. وقد يكون التوقيت خاطئاً.. وقد يحتاج الأمر إلى الإلحاح.. وقد تطلب ما هو محرم.. وقد يتعارض طلبك مع طلب مَنْ هو أولى منك وأسباب عديدة قد تمنع من الاستجابة. ولكن البعض نتيجة الفهم الخاطيء ييأس من الدعاء فيُعْرِض عنه، ولربما لجأ إلى المشعوذين والدجالين لتحقيق غرضه بعد اليأس من الدعاء.. لربما ألحد بسبب لأن مراده لم يتحقق.

ولذا حذر النبي ﷺ من الاستعجال في توقُّع نتيجة الدعاء قائلاً: (لا يزال الناس بخير ما لم يستعجلوا، قيل: يا رسول الله، وكيف يستعجلون؟ قال: يقولون: دعونا فلم يُسْتَجَب لنا)^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (لا يزال المؤمن

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٨٨١.



بخير ورخاء ورحمة من الله ما لم يستعجل فيقنط فيترك الدعاء، قلت له: كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا ولا أرى الإجابة^(١).

لربما نريد شيئاً، ويختار الله عَزَّجَلَّ لنا أمراً آخر، لذا عندما ندعو فلنختزن في أنفسنا الرضا بما يختار الله لا.. اللهم خر لي واختر لي وأنت خير المختارين.

• الثقة بالله :

في يوم العاشر من المحرم، وقبيل بدء المواجهة، وقف الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين يدي الله، ووضع المصحف أمامه، ودعا الله عَزَّجَلَّ: (اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة فكم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو فأنزله بك وشكوته إليك رغبة فيك إليك عمن سواك ففرجته وكشفته وكفيتنيه فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية)^(٢).

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٨٨١.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢١٧.



سيد شباب أهل الجنة يدعو.. ولا شك أن النتيجة المتوقعة
 للدعاء في مثل هذا المشهد تتمثل في النصر الميداني، أو
 النجاة بالنفس.. ومع هذا استشهد الحسين واستشهد أهل
 بيته وأنصاره، وغادر عَلَيْهِ السَّلَام الدنيا راضياً عما اختار الله له
 من الشهادة، لأن الحسين كان يدرك تمام الإدراك معادلة
 الدعاء والإجابة.. واستشهد، ونال من المقام الرفيع والذكر
 الخالد والاحتفاء منقطع النظير بشهادته هذه ما لم يكن
 ليحقق لولاها.





من ضوابط الإفتاء



قال عَزَّجَلَّ في كتابه الكريم بعد استعراض قصة ابني آدم هابيل وقابيل: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾^(١).



تؤكد هذه الآية المباركة على أصالة حرمة دم الإنسان، ووجوب احترام حق الآخرين في الحياة، احتراماً للحياة في ذاتها، إذ تمثل سرّاً ربانياً مختصّاً بخالقها، وواهبها، ومالك أمرها. ومن هنا ذكر الله بني إسرائيل ببعض الوصايا العشر التي أُلزموا بها، وكانت ميثاقاً بينهم وبين الله، ومن بينها مسألة سفك الدم الحرام: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾... فهل التزموا بذلك؟ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي أنهم استباحوا دماء بعضهم البعض، نتيجة الصراع المذهبي فيما بينهم، ونتيجة الصراع بين قبائلهم «أسباطهم»، ونتيجة الصراع على الملك بين مملكتي يهودا وإسرائيل، فبعد وفاة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ انقسمت مملكته إلى قسمين شكلاً دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان، إحداها



تحت قيادة ابنه ربيعام «مملكة يهودا»، والأخرى تحت قيادة شخص اسمه يربعام^(١) «مملكة إسرائيل» وصنع لهم عجولين من ذهب وأشار عليهم بعبادتهما ﴿..... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ما العامل الرئيس في تخليهم عن هذا البند من الميثاق والوصايا العشر؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٢).

ولأن الاعتداء على حياة أي فرد من الأفراد، يمثل اعتداء على النوع الإنساني كما قال عز وجل: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. وبالتالي فهو اعتداء على غرض الخلق، أي الاستخلاف. ومن هنا قال هايل: (مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(٣). أي أن مثل هذا

(١) ربيعام.. رحب: واسع وكثير، عام: العامة، والمجموع قريب من معنى زياد أو زايد في العربية.. يربعام.. يرب: يكثر ويربو ويتمي، وعام: العام، والمجموع قريب من معنى زياد أو زايد أيضاً.

(٢) سورة البقرة: ٨٢-٨٦.

(٣) سورة المائدة: ٢٨.

القتل يمثل منازعة لربوبية الله... نعم، استتنت الآية الموارد التي أباح الله فيها قتل القاتل قصاصاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(١)، أو المفسد في الأرض من أجل تخليص الناس من فسادهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا....﴾^(٢). وهذا كله إنما يجب أن يكون ضمن ضوابط عديدة، من بينها إثبات التهمة في محاكمات عادلة، وأن تتم العقوبة بعد درء الشبهات، وغير ذلك.

وتختتم الآية بالتأكيد على قيام الرسل بإيصال رسالات الله وبيانها وتوضيحها عبر التاريخ وفي الأمم المختلفة... هذا علاوة على توافر الرادع الذاتي بالعقل والفطرة والوجدان الإنساني. وكأن الآية تقول: هل يملك أحدٌ بعد هذا أن يقول لم أعلم بحرمة التعدي على حياة الآخرين؟

هذه الإدانات الواردة في الآيات السابقة لبني إسرائيل تمثل رسائل ضمنية لنا نحن كمسلمين، تحذيراً من تكرار

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) سورة المائدة: ٣٣.



ذات التجربة.. وما تم التحذير منه وقع فيه المسلمون، خاصة وأنهم تعاملوا مع هذه النصوص على أنها نكاية باليهود، لا أنها تحذير من سنن الله.

• مسؤولية الفقهاء:

من الذي يملك أن يحدد مفهوم الإفساد في الأرض على المستوى النظري؟ ويحدد مَنْ هو المفسد في الأرض فعلاً وتطبيقاً؟ ومن الذي يملك حق إصدار هذه الأحكام وتنفيذها؟ النصوص الإسلامية حذّرت من الاستهانة بهذا الأمر وتمييعه، فعن النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبِضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) ^(١).

وقد حذّر علماء المسلمين - على اختلاف انتماءاتهم المذهبية - من الإفتاء وإصدار الأحكام بغير علم، لأنه تقول على الله. قال ابن القيم: (حَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ،

(١) صحيح البخاري، ح ١٠٠.



بل جعله في المرتبة العليا منها. فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) (٢).

وفي الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية تحت عنوان «ما يُشترط في المفتي» الشروط التالية: (الإسلام، العقل، البلوغ، العدالة، الاجتهاد) وتحت الشرط الخامس جاء: (قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب: لا يحل لأحد أن يُفتي في دين الله، إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للسنّة والقرآن، ويستعمل هذا مع الإنصاف، ويكون مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا) أي بصيرة ووعي وذوق فقهي

(١) سورة الأعراف: ٣٣.

(٢) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ١، ص ٣٢.



ولغوي. وأضافت الموسوعة: (ونقل ابن القيم قريباً من هذا عن الإمام أحمد)^(١).

وفي هذا الباب نصوص كثيرة، وتأكيدات مغلظة من فقهاء المسلمين. وأما ما شاهدناه من استهانة وعبث بهذا الأمر من قبل التكفيريين، على المستوى النظري والتطبيقي، وبعض مشايخ الفضائيات، فلا يمثل أهل السنة بشيء، بل هو مصداق الحديث النبوي السابق. يتعلم أحدهم وريقات من هنا وهناك، أو يدرس في كلية أو في معهد شرعي لبضع سنوات، ثم يُنصب نفسه مفتياً وحاكماً شرعياً، يحكم في الدماء والأعراض والممتلكات ومصائر الناس.

وفيما يلي مثال على كيفية تعامل الفقهاء الحقيقيين مع هذا الأمر. فقد نقلت بعض المصادر أن الفقيه والمفكر الكبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر كتب مذكرة حول أسس الحكومة الإسلامية كمادة تثقيفية للحركة الإسلامية في العراق، وضمنها العبارة التالية: (المرتد عن الإسلام سواء كان ملياً أو فطرياً إذا تاب وأناب، فإن الدولة الإسلامية

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ٣٢، ص ٢٧-٢٨.



تَقَبُّلُ إسلامه ظاهراً وتعامله كبقية المسلمين)، وعرض هذه المذكرة على أستاذه المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي طالباً منه إبداء الرأي والملاحظات، فسجّل بعض الملاحظات من بينها «استتابة المرتد الفطري»، فإجماع فقهاء الشيعة على عدم الاستتابة. فناقشه الشهيد الصدر، وقدّم مثال الشيوعيين في العراق آنذاك، فهم بحسب العرف مصداق عملي على الردّة الفطرية، فهل يُقام عليهم الحد؟ وخُصّ الشهيد الصدر إلى أن هذا الزمن «زمن شبهة» بالاصطلاح الفقهي حيث تكثر الشبهات وتنتشر التشكيكات ضد الإسلام بقوة، مع ضعف المسلمين عن التصدي لها على مستوى الوسائل والمعالجات فلا يمكن والحال هذه مساواة المرتد الفطري في هذا الزمن بزمن قوة الإسلام أو حضور النبي ﷺ مثلاً.. فكيف نرفض استتابته؟ وفعلاً وافقه السيد الخوئي على ذلك^(١).

وبالتالي فإن مسألة الإفتاء والقضاء وإصدار الأحكام ليست مسألة سهلة ولا عبثية، ولا هي في متناول أي أحد،



ولها من الشروط والموازين والآداب ما يجعل الذي يحمل في نفسه شيئاً من التقوى يخاف التعدي عليها.

كما أن تطبيق الحدود مسألة حساسة ومرهونة بالظروف وليست مسألة تعبدية محضة ليقال بضرورة الإتيان بها على كل حال، بل لابد من ملاحظة العناوين الثانوية، وحتى التداعيات المترتبة عليها.. فهل يستطيع مَنْ لا يملك الفقه الحقيقي، وأنصاف المتعلمين، إتقانها على المستوى النظري والتطبيقي؟ ولنأخذ المثالين التاليين:

١. الشيخ الطوسي في «الخلافة»: (روى أصحابنا أن السارق إذا سرق عام المجاعة لا قطع، ولم يُفصلوا) ثم نقل قول الشافعي بالتفصيل بين حالتي توفر الغذاء مع غلاء السعر وعدمه، ثم استدل بحديث علي عليه السلام: (لا قطع في عام مجاعة. وروي ذلك عن عمر أنه قال: لا قطع في عام مجاعة، ولا قطع في عام السنة^(١) ولم يفصلوا)^(٢).

٢. السيد الخوئي: (لا تجوز إقامة الحد على أحد في

(١) أي الجذب.

(٢) الطوسي: الخلافة، ج ٥، ص ٤٣٢.



أرض العدو) افترض أنه كانت هناك حرب بين المسلمين وأعدائهم، وعلى أرض العدو، وفي الأثناء ارتكب أحد المسلمين جريمة يستحق عليها إقامة الحد عليه، فلا تجوز إقامة الحد هناك، بل يؤجل الموضوع، لماذا؟ (إذا خيف أن تأخذه الحمية ويلحق بالعدو)^(١) مستنداً في ذلك إلى المروي عن علي عليه السلام.

لاحظ كيف أن الخوف من ارتداد فرد أو التحاقه بصف العدو يدفع إلى تجميد إقامة الحد عليه... فماذا لو كان ذلك يؤدي إلى ردات فعل أوسع عند المسلمين نتيجة الشبهات المثارة والدعاية المضادة للإسلام وضعف الثقافة الإسلامية عندهم؟ وماذا لو كان هذا من أسباب تشويه صورة الإسلام وضعف الإقبال عليه؟

• جهل منظري التكفير:

المسلمون - على اختلاف مذاهبهم وطوال التاريخ - عرفوا أن شؤون الإفتاء والقضاء وإصدار الأحكام ليست من الشؤون المتيسرة لكل أحد، وأنها تتطلب في صاحبها

(١) الخوئي: تكملة منهاج الصالحين، ص ٢٧.



مستويات عالية جداً من التقوى والعدالة والإحاطة بالعلوم الشرعية ومقدماتها المختلفة، علاوة على الحكمة والشجاعة والبصيرة بأمور الزمان مع الاحتياط في الدماء والأعراض والممتلكات. وأما ما يقوم به منظرو التكفير والإرهاب على مستوى الإفتاء والتطبيق فلا صلة له بالاجتهاد والفقه الإسلامي وإقامة الحدود الشرعية والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي منطلقة من الجهل، واتباع الهوى، وطاعة الشيطان، ومن العقد النفسية التي تنعكس من خلال وحشيتهم التي يقل لها نظير في التاريخ البشري.

ومسؤولية الحواضر العلمية - لاسيما عند إخواننا من أهل السنة - بذل المزيد من الجهد لترسيخ المفاهيم الصحيحة ذات العلاقة بشؤون الإفتاء والقضاء وتطبيقاتهما بما يفوت على الأعداء فرصة خداع عامة الناس، وتشويه صورة الإسلام.

وإذا كان قتل هاييل بلا ذنب بمثابة قتل الناس جميعاً كما جاء في قوله عز وجل: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ



فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا^(١)، فإن قتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان جريمة كبرى تتجاوز العنوان المذكور في الآية السابقة، لأنه لم يكن مجرد عدوان على فرد من الناس، بل كان أيضاً عدواناً على سيد شباب أهل الجنة، وريحانة النبي وحببيه، ومحاولةً للقضاء على حركة انطلقت لتصحيح الأوضاع في الأمة الإسلامية، والإصلاح فيما أفسدته يد الأمويين على مدى عشرين سنة، انقلبت فيها معايير الناس في فهم حقيقة الدين.. وفي إدراك مَنْ يمثّل الشرعية ومن هو متمرّد عليها.. وفي معرفة أولياء الدين وأعدائه، حتى قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (سلّتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتهم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم)^(٢).

ومن هنا يأتي اهتمامنا في إحياء ذكرى كربلاء، كمحطة من المحطات التاريخية التي نعيد من خلالها التأكيد على حرمة الإنسان، وحرمة الدين، وعظمة التضحية التي قدّمها الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنصاره من أجل المبادئ التي آمنوا بها.

(١) سورة المائدة: ٣٢.

(٢) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ١٠٠.

عندما يصبح أبنائنا ضحايا خلافاتنا

قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾
 أي لا يحاول أي من الطرفين أن يمارس ضغطاً على الآخر
 بسبب ولده، كوسيلة من وسائل اعتبار الولد أداة ضغط ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي لو مات أبو هذا الطفل، فإن
 على ورثته الذين أصبحت أموال الطفل بأيديهم أن لا يلحقوا
 به الضرر، وهذا الضرر كما يتصور في الجانب المادي بأكل



مال اليتيم أو عدم الإنفاق عليه بالصورة المطلوبة، كذلك يتصور بالجانب الاجتماعي بحرمانه من لقاء أمه مثلاً.

(عن أبي الصباح قال: سئل أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال: لا ينبغي الوارث أن يضار المرأة فيقول: لا أدع ولدها يأتيها، ويضار ولدها إن كان لهم عنده شئ ولا ينبغي له أن يقتر عليه) ^(١).

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي قرّرا أن يقطعا الطفل قبل أن يبلغ السنتين وذلك لمصلحة ما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَادُكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الجائز أن يسترضع الزوج لولده من غير الزوجة الوالدة إذا ردت الولد إليه بالامتناع عن إرضاعه، أو لعدة أخرى من انقطاع لبن أو مرض ونحوه إذا سلم لها ما تستحقها تسليماً بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٢).

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٣.



فقد يسيء الرجل استغلال بعض الصلاحيات المعلقة له، وقد تستغل المرأة بعض الظروف لتنتقم، فيأتي عنصر التقوى ليكون رداً عن ذلك.

تشير الآية السابقة إلى سوء تصرف بعض الأزواج حين الخصومة بينهما بجعل الأبناء وسيلة من وسائل الانتقام من بعضهما البعض، كما جرت العادة وما زالت، دون مراعاة لمصالح الأبناء ومشاعرهم.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فحتى مع عدم اللجوء إلى استخدام الأبناء في عملية الانتقام هذه، تبقى التأثيرات السلبية للطلاق والخصومة حاضرة بالنسبة إلى الأبناء.

هذه التأثيرات قد تكون قريبة الظهور، وقد تكون بعيدة مستقبلية. ومن بين الآثار المستقبلية ما عكسته بعض الدراسات الميدانية التي خلصت إلى أن أطفال الآباء المطلقين أكثر عرضة لخوض تجربة الطلاق عندما يتزوجون في المستقبل، إذ يزيد الاحتمال إلى الضعف مقارنة بأمثالهم ممن لم يعانون من طلاق الأبوين.

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى، إذ يُفترض بمن يعيش



تجربة مريرة أن يتجنب مسبباتها أو خوضها على المستوى الشخصي في المستقبل.. فما الذي يدفع أبناء الطلاق لتكرار التجربة السلبية لآبائهم؟ يُرجع ذوو الاختصاص هذه المفارقة إلى عدة عوامل:

١. القلق: فمع التغير السلبي المفاجئ في العلاقة بين الزوجين، ومعاينة الأبناء لذلك، فإن القلق من المستقبل الغامض سيكون مسيطراً، وسيفقد الأبناء الإحساس بالأمن الذي كانوا ينعمون فيه من قبل، ولو بشكل نسبي... خاصة إذا لاحظنا انعدام أو قلة التجربة عند الأطفال في القضايا الاجتماعية من هذا القبيل، وأن ٦٠٪ من حالات الطلاق تقع عندما يكون الأطفال قصراً بحسب بعض الإحصاءات.

والإحساس بالأمن قضية محورية في التكوين النفسي والاجتماعي للطفل، ولذا كثيراً ما يتم التشديد على أن يتولّى الأبوان القيام بإطعام الطفل في طفولته المبكرة ونظافته وكسوته، وعدم إيكال ذلك إلى الخادمة.. لأن مفهوم الأمن بالنسبة إليه يتلخّص في هذه الأمور، ومع إيكالها إلى الخادمة، فإن الطفل سيعتبر أنها هي مصدر الأمان،



وسيكون متعلقاً بها كثيراً، كما أن فقدانها سترك أثره النفسي الواضح عليه.

في دراسة على ٤٨ طفلاً في مرحلة رياض الأطفال انفصل والداهم بالطلاق، و٤٨ طفلاً يعيشون مع والديهم، تبين ارتفاع معدلات سوء التوافق النفسي والاجتماعي لدى الفئة الأولى بدليل: «التصرفات العدوانية - عدم الاستقرار في الفصل - مص الأصابع - صعوبات في النطق - ضعف الحصيلة اللغوية».

٢. التشاؤم: فقد يسبب الطلاق بلورة شعور متشائم تجاه العلاقات كالزواج أو حتى الصداقة، ومن نتائج التشاؤم فقدان الثقة بالشريك، الأمر الذي قد يؤثر على العلاقة الزوجية لاحقاً. فعندما يكون الطلاق نتيجة وجود علاقة بين الأب مثلاً وبين امرأة أخرى - محللة كانت تلك العلاقة أم محرمة - فإن هذا التصرف يوصل رسالة سلبية إلى الأبناء مفادها عدم إمكانية الثقة بالشريك ضمن أية علاقة اجتماعية، إذ أن الأطفال ينظرون إلى آبائهم - عادة - نظرة إكبار وإجلال واقتداء، وأنهم أهم الناس بالنسبة

إليهم، وأنهم أفضل من سائر الناس. ولا شك في أن الحالة السابقة يمكنها تدمير تلك الصورة ذات الهالة الكبيرة.. لذا فمن المهم جداً الحفاظ على المناقشات الدائرة حول تلك المشكلة بعيداً عن الأبناء.

• الطلاق الناجح:

ولكن لربما يمكن التخفيف من ذلك بشكل كبير من خلال «الطلاق الناجح»، أي الطلاق الذي نخفف خلاله من الآثار السلبية على أنفسنا وعلى الأبناء ما أمكن.

فعندما يتم الاتفاق بين الزوجين - بعد الوصول إلى قناعة أكيدة بعدم إمكانية الاستمرار في الزواج - على ما يخص الالتزامات المادية، وحدود التعامل الاجتماعي في ما بينهما وفي ما بين أسرتهما، وتنازل كل طرف بشكل ودي عن بعض الأمور عند رغبة الآخر بها، وعدم إثارة الموضوع بين الناس، وأمثال ذلك.. فهذا طلاق ناجح.

أما عندما يتم رفع الدعاوى في المحاكم، وتقع مواجهات عنيفة بين الطرفين، أو بين أهل الطرفين، أو يكون العناد والانتقام سيّد الموقف، فهذا من صور الطلاق الفاشل.



ومن أمثلة ذلك: السماح بتبادل الحضانة والرعاية والرؤية بشكل سلس ومرن بين الأبوين بعيداً عن حالة المحاصصة للطرف الآخر، وعدم إثارة كل طرف لأبنائه ضد الطرف الآخر بذكر السلبيات والكلمات المهينة. وهذا من شأنه أن يساعد الأبناء على تعلم أنه ليس من الضرورة أن تؤدي الخلافات إلى انهيار كامل في العلاقات الاجتماعية، كالزواج والصدقة.

ولو نرجع إلى الآية الأولى سنجد أنه عَزَّجَلَّ يقول: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي أَنَّ الله أراد للأبوين أن يتشاورا في القضايا المتصلة بالولد، وأن يحاولا تحويل هذه الشورى إلى نقاط حاسمة إيجابية يتراضيان عليها. فلا يريد لأحدهما أن يتحدّث مع الآخر من موقع عقدة، أو بذهنية تشنج نفسي؛ بل من موقع تعاون على مصلحة الطفل. فإذا واجها مشكلة تختلف نظرة أحدهما عن الآخر فيها في تحديد ما هو الأصح للطفل، فعليهما معالجتها بطريقة لا تضر به، ولا بهما؛ وذلك بالبحث عن البدائل التي تتجاوز الرأي الذي اختلفا فيه.



٣. الانطوائية والخجل المفرط: ففي الوقت الذي يكون فيه بعض أطفال الطلاق عدوانيين، فإن البعض الآخر منهم يلجأ إلى الانطواء، ويتملكهم الخجل المفرط هروباً من نظرة الأقران إليهم، ومن الكلمات المسيئة الصادرة من المجتمع المحيط بهم، دون امتلاك القدرة على الرد أو الدفاع عن النفس. هذه الانطوائية وحالة الخجل المفرط، تُعرضهم إلى فشل التجربة الزوجية في المستقبل، لاسيما تحت ضغط متطلبات الحياة الزوجية ومسؤولياتها وتحدياتها المختلفة.

٤. ضعف الأداء: فقد كشفت بعض الدراسات أن الأطفال الذين عايشوا حالات الطلاق، هم أكثر ميلاً من أقرانهم لإظهار أداء متعطل وضعيف في أنشطتهم اليومية، بما في ذلك دراستهم. وهذا الأداء الضعيف قد يستمر معهم إلى حين الارتباط بشريك الحياة، ليظهر ذلك العيب جلياً وسط الظروف المتغيرة والمتقلّبة.

ومن هنا كان من الضروري عند حسم الزوجين علاقتهما باتجاه الطلاق – بل وحتى الانفصال المؤقت – التفكير في كيفية التعامل مع هذا المستجد بما يخفف من الآثار السلبية



على الأبناء. فبعض هذه الآثار لا بد وأن تجد لها طريقاً إلى نفوس الأبناء وعقولهم وسلوكياتهم، إلا أن بإمكان الآباء أن يقلصوها أو يخففوا من حدتها، وهو ما يستدعي منهم التفكير ملياً، وضبط النفس، وتحكيم العقل، واستحضار تقوى الله عزَّجَلَّ.

الأبناء ضحايا أخطاء الكبار، وعلى الكبار تحمّل مسؤولياتهم تجاه تلك الأخطاء التي قد تبقى آثارها السلبية مستمرة لسنوات، بل ويرثها جيل عن الجيل الذي سبقه.

ولنلاحظ المفاهيم التي ساقها الإمام علي بن الحسين زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدعاء لأولاده كما جاء في الصحيفة السجادية: (اللَّهُمَّ وَمَنْ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وُلْدِي، وَبِإِصْلَاحِهِمْ لِي، وَبِإِمْتَاعِي بِهِمْ) ما أكثر الأبناء كما وكيفاً الذين يتحوّل وجودهم إلى عنصر شقاء بالنسبة لأولياء الأمور.. في سلوكياتهم داخل المنزل، وفي خارجه.. في تمرّدهم وفي انحرافهم.. في شعور آبائهم بالفشل في تربيتهم.. وفي سوء السمعة التي يلحقونها بهم.

بالطبع المسألة ليست مسألة دعاء فحسب.. الأمور لا



تُحل بهذه الصورة.. ولكنه عنصر مساعد يتفاعل مع مساعي الإنسان. وقد يكون الأمر خارجاً عن السيطرة.

النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عانى من أحد أولاده.. وهكذا بعض الأئمة عانوا من بعض أولادهم.. هل هذا فشل في التربية؟ ليس بالضرورة.. فأنت لا تستطيع أن تحبس الولد عن كل المؤثرات الخارجية التي يتفاعل معها.. أنت تبذل جهدك.. وتعطيه المقوّمات وعناصر الحصانة.. ولكن في نهاية المطاف يبقى هو موجود حر مختار، والعوامل قد تكون أقوى منك.

(إِلَهِى ائْمُدْ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ وَأَصِحِّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، وَعَافِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي جَوَارِحِهِمْ وَفِي كُلِّ مَا عُنَيْتُ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ).

طول العمر في حد ذاته ليس بقيمة.. بل بمقدار ما يكون وسيلة للاستزادة من هذه الحياة للآخرة المنعمّة.. وهكذا عندما ندعو لأحد بطول العمر فليكن ذلك مقروناً بالسلامة في الدين والدنيا. يقول الإمام السجاد في دعاء مكارم



الأخلاق: (وَعَمَّرْنِي مَا كَانَ عُمْرِي بِذِلَّةٍ فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مَرْتَعًا لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتِكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكَمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ) ^(١).

نعود إلى دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاده: (وَأَدْرِزْ لِي وَعَلَى يَدِي أَرْزَاقَهُمْ، وَاجْعَلْهُمْ أَبْرَارًا أَتَقِيَاءَ بُصْرَاءَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَكَ وَلِأَوْلِيَائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ آمِينَ. االلَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضْدِي، وَأَقِمْ بِهِمْ أَوْدِي، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدِي، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرِي، وَأَحْيِي بِهِمْ ذِكْرِي، وَاكْفِنِي بِهِمْ فِي غَيْبَتِي وَأَعْنِي بِهِمْ عَلَى حَاجَتِي، وَاجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّينَ، وَعَلَيَّ حُدُبِينَ مُقْبِلِينَ مُسْتَقِيمِينَ لِي، مُطِيعِينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلَا عَاقِينَ وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعْنِي عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مَعَهُمْ أَوْلَادًا ذُكُورًا، وَاجْعَلْ ذَلِكَ خَيْرًا لِي وَاجْعَلْهُمْ لِي عَوْنًا عَلَى مَا سَأَلْتُكَ، وَأَعِزَّنِي وَذَرِّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) ^(٢).

(١) الصحيفة السجادية: من دعائه في مكارم الأخلاق ومرضِي الأفعال.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه لأولاده.



لقد كان لأبناء علي والحسن والحسين وعقيل والهوراء
 زينب المواقف المشرفة في يوم عاشوراء.. في تضحياتهم،
 وفي مواقفهم، وفي شعاراتهم وكلماتهم التي أطلقوها تأكيداً
 منهم على نصرة دينهم وإمامهم، وبمثل هذه النماذج
 التي كتبت بدماؤها صفحات مشرقة من التاريخ، فأجبرت
 الهامات على أن تطأطيء احتراماً وتقديراً لها يفتخر الآباء
 والأمهات.

ولكن لنا أن نتساءل إن كانت لوعة فقد الولد الواحد كما
 في الأبيات التالية لابن الرومي أمراً عظيماً.. فكيف بمن
 فقدت كل أولادها في يوم عاشوراء؟

وَإِنِّي وَإِنْ مُتَّعْتُ بِابْنِي بَعْدَهُ

لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ فِي نَجْدِ

وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجَوَارِحِ، أَيُّهَا

فَقَدْنَاهُ، كَانَ الْفَاجِعُ الْبَيْنُ الْفَقْدِ

لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهُ

مَكَانُ أَخِيهِ فِي جُزُوعٍ وَلَا جِلْدِ



هَلْ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
 أَمْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
 لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي
 تَكَلَّمْتُ سُرُورِي كُلَّهُ إِذْ تَكَلَّمْتُهُ
 وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَاتِ عَيْشِي أَخَا زُهْدٍ
 أَرِيحَانَةُ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي، هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
 أَقْرَةَ عَيْنِي، قَدْ أَطْلَلْتُ بُكَاءَهَا
 غَادَرَتْهَا أَقْدَى مِنَ الْأَعْيُنِ الرُّمْدِ
 أَقْرَةَ عَيْنِي، لَوْ فَدَى الْحَيُّ مَيِّتًا
 فَدَيْتُكَ بِالْحَوْبَاءِ أَوَّلَ مَنْ يَفْدِي
 كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ
 وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ



مُحَمَّدٌ، مَا شَيْءٌ تَوْهَّمَ سَلَوَةٌ

لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ

أَرَى أَخَوَيْكَ الْبَاقِيَيْنِ كِلَيْهِمَا

يَكُونَانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْرَى مِنَ الزُّنْدِ

إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَذْعَا

فُؤَادِي بِمِثْلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصْدِ^(١)





أسباب النسيان ومخاطره



﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ
عِزْمًا﴾^(١).

النَّسْيَانُ لغوياً: ضدُّ الذِّكْرِ والحِفْظِ. كما في قوله عزَّجَلَّ:
﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ



الْحُوتَ وَمَا أُنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١﴾ .

والنسيان أيضاً: الترك. ولذا فعندما نقراً: ﴿نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ﴾ (٢) لا يمكن أن نفهم معنى نسيان الله لهم أنه لا
يتذكرهم، لأن الله لا يغيب عنه شيء، إنما معناه تركوا الله
فتركهم من رحمته .

وهكذا عندما نقراً قوله عزَّجَلَّ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ
نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (٣) ليس بمعنى أن الله
يُنْزِلُ آيَةً قرآنية ثم ينساها الناس بتدخل إلهي، كما في بعض
الأحاديث، ومنها ما في مسند أحمد عن أم المؤمنين عائشة
أنها قالت: (لَقَدْ نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ) أي أنزل الله آية قرآنية
تتضمن حُكْمَ رَجْمِ مَنْ يَزْنِي مِنْ كِبَارِ السَّنِ، ومن المعلوم
عدم وجود هكذا آية في المصحف الشريف (وَرَضَاعَةُ
الْكَبِيرِ عَشْرًا) أي أنزل آية تتضمن جواز أن ترضع المرأة
ذكراً بالغاً فيصبح بمثابة ابنها إن أتم عشر رضعات، ومن

(١) سورة الكهف: ٦٢-٦٣.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

(٣) سورة البقرة / ١٠٦.

المعلوم أيضاً خلّو المصحف الشريف من هكذا آية (وَلَقَدْ كَانَ فِي صَحِيفَةٍ تَحْتَ سَرِيرِي، فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ، دَخَلَ دَاجِنٌ فَأَكَلَهَا) ^(١)، وبني على ذلك بعض علماء أهل السنة بأننا إذ لم نجد نجد هذه الآية في القرآن، لذا فإنّ هذا المورد من موارد نسخ التلاوة؛ وقد أنسى الله المسلمين هذه الآية ونسي حكمها أيضاً.

بل الصحيح أن يقال أنه لا يوجد نسخ للتلاوة، وأن النسخ يكون فقط للحكم، ومعنى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي ما ننسخ من حكم آية - أي حكم مذكور في آية - أو نأمركم بترك الحكم المذكور فيها نأت بخير منها أو مثلها. وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب أنه: (يَقَالُ: «أَنْسَيْتُهُ أَيْ أَمَرْتُ بِتَرْكِهِ. وَنَسَيْتُهُ: تَرَكْتُهُ» ^(٢)).

وموارد حذف المضاف في الآيات القرآنية كثيرة جداً، وقد جاء في كتاب «إعراب القرآن»: (الباب الثاني: ما جاء من حذف المضاف في التنزيل، وليس من هذه الأبواب

(١) ابن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٢٦٩.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٢٥١.



في التنزيل أكثر من هذا) ^(١)، ومن أمثلته قوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ ^(٢)، أي «حُبَّ الْعِجْلِ» بحذف المضاف.

وأما مورد نسخ حكم مذكور في آية، فهو كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٣). فقد دأب بعض المسلمين على زيارة النبي ﷺ في بيته في أوقات راحته وذلك لسؤاله عن بعض الأمور غير الضرورية، فأراد الله التخفيف على نبيه بهذا التشريع المؤقت المميّز بين مَنْ لديه رغبة حقيقية في المعرفة أو مسألة مهمّة، وبين مَنْ يمكن له الانتظار إلى أن يخرج النبي من بيته ليسأله عنها.

وبعد أن تبين للجميع أن علياً عَلَيْهِ السَّلَام وحده الذي أنفق في هذا الطريق وناجى النبي، لأنه الوحيد الذي كان يملك الرغبة الحقيقية للمعرفة، نُسخ حكم الآية.

(١) الباقرولي أو الزجاج: إعراب القرآن، ج ١، ص ٤١.

(٢) سورة البقرة: ٩٣.

(٣) سورة المجادلة: ١٢.

في تفسير الطبري: (قال علي رضي الله عنه: آية من كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنْتُ إذا جئت إلى النبي ﷺ تصدَّقتُ بدرهم، فنُسخت، فلم يعمل بها أحد قبلي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(١)).

وجاء نسخ الحكم في الآية اللاحقة حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ومثال ترك حكم شرعي ما جاء في سورة البقرة حول تغيير القبلة، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ، قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ٢٢، ص ٤٨٣.

(٢) سورة المجادلة: ١٣.



فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

ويختلف هذا المورد عن المورد السابق الخاص بالصدقة
عند نجوى النبي ﷺ أن حُكِمَ وجوب توجه المسلمين إلى
المسجد الأقصى - على اعتبار أنها القبلة - لم يرد في
آية سابقة، لتُسَخَّرَ بعد ذلك، بل أشير إليه ضمن آية تغيير
القبلة، بينما في آية النجوى نجد أن الآية الأولى أوجبت على
المسلمين أمراً ثم جاءت الآية اللاحقة فنسخته.

• المرأة والنسيان:

ثم إن جذر كلمة «النسيان» «نسا» جذر مشترك للنسيان
وللنساء معاً.. وكأن النسيان ارتبط عند العرب بالنساء،
فاشتقوا الكلمتين من جذر واحد لما بينهما من ارتباط. ولا
ضير في ذلك من الناحية العلمية ولا يقلل من شأن المرأة،
فالاختلافات بين دماغي الذكر والأنثى مسألة علمية، ولكلُّ



خصوصياته وامتيازاته، ففي حين يصعب على دماغ الرجل أداء بعض الإجراءات في آن واحد، يسهل ذلك على دماغ المرأة، والعكس صحيح، وهذا التمايز لا يعني تفوق أيٍّ منهما على الآخر من ناحية الفضل والفضيلة، بل الاختلاف التكويني ليؤدّي كل منهما وظيفته في الحياة بما هو مناسب لهذا التكوين.

وللدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «التفسير المنير» التفاتة لطيفة متعلقة بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(١)، قال: (ذكر الله تعالى السبب في جعل شهادة المرأتين بشهادة رجل، أي اعتبار العدد في شهادة النساء: وهو التذكير، صوناً لحكم الشهادة؛ لعدم ضبط المرأة وقلة عنايتها ونسيانها، فتذكر كل منهما الأخرى.... فقد جرت العادة أن المرأة لا تهتم كثيراً بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوزات.... وأما اشتغال النساء في هذا



العصر بالمسائل المالية فلا يُغيّر الحكم؛ لأن الأحكام إنما للأعم الأغلب. وبالرغم من إسناد الوظائف المالية للمرأة، فإنها لا تأبه بغير العمل الذي وُكّلت به وفُوض إليها، فلا تلتفت لما يجري بين الآخرين من منازعات على قضايا مالية... فكان تذكرها للمعاملات - فيما عدا مشترياتها الخاصة - قليلاً. والخلاصة: أن الحكم للأغلب، ولا عبرة بالنادر، والشرع ينظر للمجموع^(١).

• في الاستعمال القرآني:

عندما نبحث عن النسيان في الاستعمال القرآني، سنجد حديثاً متكرراً، ويتضمّن نتائج وتبعات الذين ينسون العهد مع الله.. بدأ مع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومرّ بعدة أقوام، محذراً المسلمين من تكرار التجربة.

وغالبية الموارد القرآنية التي تتحدث فيها الآيات عن النسيان، ليس المراد منه «عدم التذكّر»، بل استُعمل هذا اللفظ للدلالة على الترك والإهمال، وعدم المراعاة، والتراخي. فالله عَزَّجَلَّ أرحم من أن يعاقب ويعذب الإنسان

(١) الزحيلي: التفسير المنير، ج ٣، ص ١١٠-١١١.



على أمر لم يتذكره وغاب عن ذهنه. وفي وسائل الشيعة عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول اللَّهِ ﷺ قوله: (رُفِعَ عَنْ أُمْتِي) أي لا حساب عليهم ولا مؤاخذه في الآخرة في (تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما أُكْرِهُوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضْطُرُّوا إليه، والحسد) ولعل المراد منه المشاعر والأفكار دون ما يُترجم إلى قول أو فعل، ولنلاحظ نهاية الحديث ففيه دلالة على ذلك، وهذا لا يعني التشجيع عليه أو عدم تأثيره السلبي على النفس بحيث يفسح الإنسان لنفسه أن يحسد بهذه الحدود. كل ما في الأمر أن النبي يبين رحمة الله، وهكذا بالنسبة إلى العنوانين التاليين (والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلوة، ما لم ينطقوا بِشَفَةِ) ^(١). فإذا ترتب الأثر الخارجي حوسب الإنسان.

ولذا فإن الصائم إذا تناول المُفطر – مثلاً – وهو ناسٍ لصيامه، لا يؤاخذ عليه تكليفاً، فليس بمرتكب لحرام... ولا وضعاً، فصومه صحيح أيضاً.

ومن نماذج الحديث القرآني عن النسيان – أي الإهمال

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٠٧٦٩،



وعدم المراعاة والتراخي – ما جاء في سورة طه ابتداء من الآية ١١٥ إلى الآية ١٣٢، وبدأت بقصة آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١).

هل النسيان هنا بمعنى عدم التذكُّر؟ أبداً، والدليل على ذلك أن إبليس عندما أراد إغواء آدم ذكره بكلام الله عزَّجَلُ: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٢). أي أن آدم كان متذكِّراً للتحذير الإلهي، أو على الأقل ذكره إبليس بذلك، وعليه يكون معنى أنه نسي هو هو الترك والإهمال للأمر الإلهي وعدم مراعاته، وتصديق القسم الذي جاء به إبليس.

فالإنسان كفرد، والبشر كجماعة، لديهم القابلية لأن يصدر عنهم الإهمال والتراخي وعدم المراعاة، وهذه الحالة خطيرة حذر منها القرآن عدة مرات، وضرب عليها الأمثلة.

(١) سورة طه: ١١٥.

(٢) سورة الأعراف: ٢٠-٢١.



• مثال من سورة الأنبياء:

ففي سورة الأنبياء بيّن الله عزّ وجلّ خطورة الاستسلام لهذا النوع من النسيان، قال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ المشركين ﴿وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي امتدّ بهم الزمان وترتّب على ذلك أنهم:

١. شعروا بالقوّة.. قوة الصحة والعافية والمال والترّف والرفاهية والامتداد بالذرية.

٢. أهملوا حقيقة الموت المتربّص بهم

٣. كفروا بالحياة الآخرة، وبالحساب والعقاب والثواب

أين ذهبت عقولهم؟ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟ أفلا يرون الناس يموتون من حولهم؟ أليس في هذا واعظ لهم كي ينتبهوا إلى مصائرهم، ويضعوا في حسابانهم احتمال البعث والحساب؟

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١) هل يتصوّرون أن بإمكانهم قهر الموت وتقدير الأمور كيف يشاؤون؟



هذه واحدة من مخاطر إهمال ذكر الله وذكر الموت والآخرة وأن هذه الحياة مؤقتة.. من مخاطر الاستغراق في هذه الحياة وشؤونها بالمستوى الذي يجد فيه الإنسان نفسه كحال أولئك المشركين، فيصبح كل تفكيره وهمّه وجهده لهذه الحياة، ليأتي يوم القيامة مفلساً. هذا النموذج عبّر عنه القرآن بالصورة التالية: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي تركوا وأهملوا وتراخوا عن ذكر الله عَزَّجَلَّ وأوامره ونواهيه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، أي ستركهم الله ويهملهم وسيسلب عنهم رحمته. هذا الإهمال منهم أدّى إلى ما بدأت به نفس الآية السابقة: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.. وهذا كله من نتائج هذا النسيان والإهمال والتراخي.

• عودة إلى سياق سورة طه:

ثم يقدم الله في سورة طه – بعد ذكر قصة آدم – العبرة منها وذلك بتقديم القاعدة الضامنة للنجاة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وعندها ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ هذا النموذج من الناس في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾^(١) في الآخرة.



واتباع الهدى يحتاج إلى التذكّر الدائم وهو بدوره يحتاج إلى أدوات:

١. حضورك في المساجد.. عن الإمام علي عليه السلام: (مَنْ اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يسمع كلمة تدله على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء) ^(١).

٢. ذهابك إلى الحج والعمرة.

٣. حضور الجنائز وزيارة المراقد والمقابر.

٤. تلاوة كتاب الله والاستماع والإنصات إليه.

٥. الدعاء.

٦. الجلوس إلى إخوانك الذين يذكرونك بالله وبالآخرة.. وأمثال ذلك..

وأما مخاطر ونتائج مخالفة هذه القاعدة وإهمال ذكر الله فكالآتي:

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٦٣٢٠.



١. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(١)

في الحياة الدنيا. من طبيعة النفس البشرية أن لا تشبع، فهي في نهم مستمر.. للمال، للغريزة الجنسية، للجاه، للشهرة.. كل إنسان بحسبه. وكل هذا يستتبع الحسد، والتفكير المنهك، والقلق، والاكتئاب، وآلام المعدة والقولون والرأس. إلخ. وإذا دخل في المجالات غير القانونية فمصيبة أخرى.. سجن وملاحقة وخوف، والقائمة تطول.

٢. ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾^(٢) إهمال الإنسان وتراخيه أوصله إلى هذه النتيجة، حيث سيهمله الله وسيسلب عنه رحمته في الآخرة.

٣. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾^(٣)

وهذه من نتائج ذلك الإهمال الذي عاشه هذا النموذج في الدنيا:

(١) سورة طه: ١٢٤.

(٢) سورة طه: ١٢٤-١٢٦.

(٣) سورة طه: ١٢٧.



أ- الإسراف في المعاصي والاستغراق في الدنيا..

ب - ثم عدم التأثر بكل الدلائل المنبّهة له والتي كانت تسعى لفتح عينيه على الحقيقة.

والله عادل حين يَهمله في الآخرة.

٤- ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(١). تجارة خاسرة بكل

المقاييس. من حيث النوع، ومن حيث الامتداد.

ثم تستدرك الآيات لتؤكد حقيقة أن عوامل عدم الغفلة عن ذكر الله والآخرة موجودة: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٢) والعقول. والمطلوب منك أن تفتح عينيك، وأن تفكر بشكل سليم، وتحسبها صح، تماماً كأى إنسان حاذق يريد دخول عالم التجارة حيث يأخذ بعين الاعتبار الجدوى الاقتصادية، والتكلفة، والأرباح، وغير ذلك.

٥. من نتائج الإهمال والاستغراق في التلهي عن ذكر الله والآخرة، سوء تفسيرهم لعدم المعاقبة العاجلة في الدنيا،

(١) سورة طه: ١٢٧.

(٢) سورة طه: ١٢٨.



وهذا بدوره سيساعد على المزيد من التراخي والإهمال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ أن نعذبهم في الدنيا على ما يقتربون ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾^(١) فهناك نهاية للطريق، ثم يُبعثون.. وكل ما يصدر عن الله من تأجيل عقوبة الاستئصال يصدر عن حكمة ولغرض.

• ما هو المطلوب؟

وتكمل الآيات بعرض المطلوب من الإنسان المؤمن الذي يتطلع إلى أن يذكره الله في الآخرة: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾^(٢) والذي يعين الإنسان على الصبر أمور:

١. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ وهذا المزيغ من الصبر والذكر اللساني قد يوصلك إلى الطمأنينة النفسية وبالتالي ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(٣).

٢. ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

(١) سورة طه: ١٢٩.

(٢) سورة طه: ١٣٠.

(٣) سورة طه: ١٣٠.



زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(١)
فمثل هذه المقارنات مُتَبِعَةٌ وتزرع عدم الرضا بقضاء الله
وتدفع إلى الحسد، والبخل، والكثير من الرذائل، ونتيجتها
أن تجذبك إلى الدنيا وتجعلك تغفل عن ذكر الله والآخرة.

٣. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾^(٢) انهض بمسؤولية الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ووفر حولك الأجواء الإيمانية.

٥. ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾^(٣)
حُبِّ الصلاة إلى نفسك، ولا تعتبرها مجرد تكليف تريد
إسقاطه، أو أمراً يحتاج إليه الله، وحينها ستشعر بتأثير هذه
الصلاة في حياتك إيجاباً وتجعلك من أصحاب النفوس
المطمئنة.

٦. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٤) وهذا هو العامل الآخر الذي
سيجعل الإنسان من المستحقين لعناية الله ورحمته في
الآخرة.

(١) سورة طه: ١٣١.

(٢) سورة طه: ١٣٢.

(٣) سورة طه: ١٣٢.

(٤) سورة طه: ١٣٢.



فالتقوى صمّام الأمان الذي يُصلح مسيرة الإنسان كلما ضغطت الشهوات عليه، وكلّما زيّن له الشيطان المعاصي، وكلما أغرته الدنيا بزُخُرفها وزبرجها.

• ما هو المطلوب؟

إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ عندما يَأْمُرُنَا بِأَنْ نَذْكُرَهُ، فالمطلوب أن نذكره عن وعي وبصيرة، أن نذكره لكي نهتدي، أن نذكره لكي نُصلح أحوالنا، أن نذكره لكي ترتقي أخلاقنا، أن نذكره لكي نرفع منسوب التقوى في نفوسنا، وهذا ما سيجعلنا مستحقّين لذكره إيانا في الآخرة، ولا نكون من الذين نسوا الله في الدنيا فنسيهم في الآخرة، وحشرهم عُميّاً لا يهتدون، ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، هذه الحقيقة التي قدّمها الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ساطعة ناصعة حين وقف أمام أعدائه وخطب فيهم خطبته الأولى قائلاً: (عباد الله، اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد وبقي عليها أحد كانت الأنبياء أحق بالبقاء وأولى بالرضا وأرضى بالقضاء، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلها للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضمحل،



وسرورها مكفهر، والمنزل بلغة^(١)، والدار قلعة^(٢)، فتزودوا
فإن خير الزاد التقوى واتقوا الله لعلكم تفلحون^(٣).....
وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم
وأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحلّ بكم نقمته، فنعم الربّ
ربّنا وبئس العبيد أنتم؛ أقررتم بالطاعة وآمنتُم بالرسول
محمد ﷺ ثم إنكم زحفتُم إلى ذريّته وعترته تريدون
قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله
العظيم، فتباً لكم ولما تريدون. إنا لله وإنا إليه راجعون،
هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين^(٤).

(١) وفي نص آخر «تلعة»، أي مرتفع من الأرض، فقد كان المسافرون
يختارون المرتفع من الأرض عند البيات في الليل أثناء السفر تجنباً
لبعض المخاطر. والاستعمال كناية عن عدم الاستقرار في الدنيا،
(٢) الدنيا لا دوام فيها.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢١٨.

(٤) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم: موسوعة كلمات الإمام
الحسين، ص ٥٠٤.

الأبعاد الفكرية والسياسية للصحيفة

لأدعية الصحيفة السجادية أبعاد إيمانية وتربوية وأخلاقية ومعرفية، وأنها لا تقتصر على بُعد طلب الحوائج من الله فقط، وسأعرض هنا إلى ثلاثة أمثلة، المثال الأول يخص الجانب الإيماني العقدي، والثاني يخص جانب بناء الشخصية المؤمنة، وسأحدث في المثال الثالث عن نموذج من البعد السياسي في الصحيفة السجادية.

• المثال الأول:

تضمنت الصحيفة السجادية تعاليم تُرسّخ مبادئ الإيمان السليمة، وكشف زيف البدع الدخيلة على القيم الإيمانية، وأوضح مثال على ذلك بدعة «الإرجاء».

وقد ذكر أحمد أمين «الطباخ» «ت ١٩٥٤» الإرجاء وأثره في كتابه «فجر الإسلام»^(١) قال: (من نتائج تعاليم المرجئة - أعني أن الإيمان هو التصديق وأن العمل ليس داخلاً في مفهومه - اتساع دائرة المؤمنين، فكل من آمن بالله ورسله

(١) الذي كتبه في سنة «١٩٢٩» وهو يخصّ تحليل التاريخ ما قبل البعثة النبوية الشريفة إلى نهاية القرن الأول، بينما كتب لاحقاً «ضحى الإسلام» والذي تناول فيه عرض وتحليل القرن الهجري الثاني، ثم «ظهر الإسلام» والذي تناول فيه العصر العباسي الثاني من المتوكل فما بعد. وقد تعرض كتابه فجر الإسلام إلى النقد العنيف من قبل علماء الشيعة. قال في مقدمة كتابه «ضحى الإسلام»: (لما أخرجت كتاب فجر الإسلام كان له أثر سيء في نفوس كثير من رجال الشيعة، وما كنت أقدر ذلك... ولكن شيعة العراق والشام غضبوا منه وألفوا في الرد عليه كتباً ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب منها، ولما لقيت شيخ الشيعة في العراق الأستاذ آل كاشف الغطاء عاتبني على ما كتبت عن الشيعة في فجر الإسلام... لقد استندت فيما كتبت على الخصوم، وكان الواجب أن أستند إلى كتب القوم أنفسهم، وقد يكون ذلك صحيحاً في بعض المواقف...).



فهو مؤمن، وإن ارتكب الكبائر، كما أن مبدأهم في جواز عفو الله عن العصاة أوجد احتمال أن مرتكب الكبيرة يدخل الجنة من غير عقاب.... ونتيجة هذا أنهم كانوا ينظرون إلى معاوية وصحبه نظرتهم إلى علي وصحبه، ويرون مهادنة بني أمية صحيحة، وأن خلفاءهم مؤمنون لا يصح الخروج عليهم.. ولذلك لم تر الأمويين اضطهدوا مرجئاً لإرجائه، كما كانوا يضطهدون المعتزلة لاعتزالهم والخوارج لخارجيتهم والشيعة لتشييعهم، بل نراهم كانوا يستعملون مَنْ عُرِف بالإرجاء في أعمالهم^(١).

ويبدو أن الأمويين قد تأثروا أصلاً بهذه العقيدة من خلال نظرية «الفداء والخلص» المسيحية، لاسيما وأن الأمويين عاشوا في الأجواء النصرانية في الشام في المرحلة التي أعقبت وفاة رسول الله، وهي العقيدة التي تنص كما في بعض النصوص النصرانية على ما يلي: (إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَاوْا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللَّهِ، مُتَبَرِّرِينَ مَجَانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي يَبْسُوعُ الْمَسِيحِ)^(٢).

(١) أمين: فجر الإسلام، ص ٢٧٩.

(٢) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٣: ٢٢-٢٤.



ومزايا الفداء - بحسب هذه التعاليم - تتضمن :

١. الحياة الأبدية
 ٢. مغفرة الخطايا
 ٣. الصلاح
 ٤. التحرر من لعنة الشريعة
 ٥. أن يصبح المؤمنون أبناء الله بالتبني
 ٦. التحرر من أغلال وعبودية الخطيئة
 ٧. الحصول على السلام مع الله
 ٨. سكنى الروح القدس في المؤمنين
- (فكوننا مفديين - إذاً - يعني أن خطايانا قد غُفرت، وأننا قد تقدّسنا، وتبرّرنا، وبوركنا، وتحرّرنا، وأصبحنا أبناء، وتصالحنا مع الله... وكلمة يفدي تعني «يعتق أو يدفع ثمن»، ولقد كان يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى تحرير العبيد. وكون أن هذا المصطلح قد استخدم للإشارة إلى موت المسيح على الصليب، فهذا يحمل معان



كثيرة. فإن كنا قد تم «فداؤنا»، فلا بد وأن حالتنا الأولى كانت حالة عبودية. لقد دفع الله ثمن تحريرنا، فلسنا - بعدُ - تحت وطأة الخطيئة أو الشريعة... والحقيقة أن الكتاب المقدس واضح جداً أنه يمكن لنا الحصول على الفداء «من خلال دم المسيح» فقط، أي بموته بدلاً عنا.. فالشوارع السماوية ستكون مليئة بالمعتوقين، الذين حصلوا على الغفران والتحرير، وذلك ليس بسبب شيء ما قد فعلوه. إذ أننا سنجد أن عبيد الخطيئة أصبحوا قديسين... فقد كنا عبيداً للخطيئة، محكوم علينا بالانفصال الأبدي عن الله. ولكن المسيح دفع ثمن فدائنا، وحررنا من الخطيئة ونجاننا من عواقب الخطيئة الأبدية) ^(١).

من الواضح جداً لمن يقرأ الكلام السابق أن يدرك تأثير عقيدة الفداء الدخيلة على النصرانية على عقيدة الإرجاء الدخيلة على الإسلام. وكانت هذه العقيدة مناسبة جداً لأصحاب المصالح. وقد نُقل عن المأمون قوله: (الإرجاء دين الملوك) ^(٢).

(١) <http://christ-way-truth-life.blogspot.com>

(٢) أمين: فجر الإسلام، ص ٢٧٩.

بذا وجد الإرجاء طريقها بين الناس، وظهر كمذهب واضح المعالم وله أتباعه، ففي «علل الشرائع»: (عن أبي ثمامة قال: دخلت على أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ وقلت له: جعلت فداك إني رجل أريد أن أأزم مكة وعليّ دينٌ للمرجئة فما تقول؟ قال: قال ارجع وأدّ دينك وانظر أن تلقى الله تعالى وليس عليك دين، فإن المؤمن لا يخون)^(١).

وواجه أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الإرجاء في نصوص كثيرة، منها ما روي في «كشف الغمّة» عن طاووس بن كيسان اليماني^(٢) (رأيت رجلاً يصلي في المسجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكي في دعائه فجئته حين فرغ من الصلاة، فاذا هو علي بن الحسين الامام زين العابدين فقلت له: يا ابن رسول الله رأيتك على حالة كذا، ولك ثلاثة أرجو أن تؤمنك من الخوف، أحدها: أنك ابن رسول الله، والثاني: شفاعة جدك، والثالث: رحمة الله. فقال: يا طاووس، أما أني ابن رسول الله ﷺ فلا يؤمنني وقد سمعت الله تعالى يقول: ﴿لَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾

(١) الصدوق: علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٢٨.

(٢) من علماء التابعين وروى عن الصحابة «ت ١٠٦هـ».



وَلَا يَتَسَاءَلُونَ^(١)، وأما شفاعة جدي فلا تؤمنني لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٢)، وأما رحمة الله فان الله تعالى يقول انها قريبة ﴿مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)، ولا أعلم أنني محسن).

والتفت القاضي النعمان في «دعائم الإسلام»^(٤) إلى دور الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواجهة الإرجاء فقال: (روينا عن جعفر بن محمد أنه قال: الإيِّمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، وهذا الذي لا يصح غيره، لا كما زعمت المرجئة أن الإيِّمان قولٌ بلا عمل)^(٥).

وعلى الرغم من مواجهة أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

(١) قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سورة المؤمنون: ١٠١.

(٢) قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨.

(٣) قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة الأعراف: ٥٦.

(٤) الكتاب الأساسي في الفقه الإسماعيلي.

(٥) النعمان: دعائم الإسلام، ج ١، ص ٣.

الإرجاء، تسلت هذه العقيدة المبتدعة إلى التشيع بعدة طرق، من بينها:

١. أنها الأقرب إلى النفس والأوفق بالأهواء.
 ٢. إقبال الناس على التشيع لآل البيت - بشكل عام - بعد واقعة كربلاء، محمّلين بأفكارهم ومتبنياتهم السابقة.
- فواجهها الأئمة ولكن في داخل البيت الشيعي هذه المرة. فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: (يا جابر، أيكفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخضع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم في الأشياء. قال جابر: فقلت يا بن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة، فقال: يا جابر لا تذهبن بك المذاهب. حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً، فلو قال إنني أحب رسول الله



فرسول الله (ص) خير من علي (ع)، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر، والله ما يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع^(١).

ومن أساليب الأئمة في مواجهة الإرجاء تضمين الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه بالمفاهيم الإيمانية الصحيحة المعارضة لها، كما في دعاء «مكارم الأخلاق» في الصحيفة السجادية، تأكيداً على عدم كفاية الإيمان، وضرورة العمل الصالح الشامل للعبادات، والسلوكيات الاجتماعية الإيجابية، والتحلّي بالآداب: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَبَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَأَنْتَ بَنَيْتَنِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ

(١) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٧٤-٧٥.

الأعمال... وَاسْتَعْمَلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي
فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ...^(١). ثم يقدم الإمام قائمة طويلة جداً
من الأعمال الصالحة التي ترسم معالم الشخصية المؤمنة.

• المثال الثاني:

عمل الإسلام على ترسيخ مفهوم أنَّ الموضع المتقدم
الذي يشغله الإنسان ليس تشريفاً له بل هو تكليف، ليس
وسيلة لترفعك على الناس، بل موقع لخدمة الناس.. وسيلة
لتحقيق العدالة الاجتماعية.. وعلى المسئول أن يضحّي في
هذا الطريق، لا أن يتكسّب منه.

ولنلاحظ ما جاء في عهد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك
الأشتر حيث قال له: (ثم الله الله في الطبقة السفلى من
الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤس
والزمنى^(٢) فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحفظ لله
ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت
مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠.

(٢) أي المعاقون.



لأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلُّ قد استرعت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تُعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم) لا تقل إني أنجزت مهمات الأمور ومشغول بها عن الأمور البسيطة التي أهملتها وأن في هذا عذر لي (فلا تشخص همك عنهم، ولا تُصعّر خدك لهم).

ثم يوصي الإمام بتتبع أحوال من لا يستطيعون أو يخافون أو لا يريدون الوصول إلى المسؤولين لسبب أو لآخر كعفة النفس أو لضعف في نفوسهم: (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تفتحهم العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلاقاه) أد مسؤولياتك تجاههم بحيث لو سألك الله في الآخرة وحاسبك على ذلك كنت تملك العذر في جوابك بحيث تقدم الدليل على أنك تحملت المسؤولية كما ينبغي (فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلُّ فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهّد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك

على الولاة ثقیل^(١) والحقُّ كله ثقیل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم).

ولابد للمسؤول أن يقوم ببعض هذه المسؤولية بنفسه، لأنه بذلك سيكون قريباً من الناس، فيتواضع، ويعرف مشاكلهم عن قرب، ولهذا انعكاس كبير على قراراته (واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرِّغْ لهم فيه شخصك، وتجلسُ لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعِد عنهم جندَكَ وأعوانك من أحراسك وشُرطتك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن^(٢): «لن تُقدَّسَ أمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقُّه من القوي غير متتعتع». ثم احتمل الخُرْق منهم والعَي) تحمّل كلماتهم القاسية ووقاحتهم فإنَّ الحياة القاسية وممرارة العيش وتراكم الآلام تجرّوهم على التهمة واتباع الظنون والكلام العنيف (ونحْ عنك الضيق والأنفَ ييسط الله عليك بذلك أكنافَ رحمته، ويوجبْ لك ثوابَ

(١) تسبب لهم وجع رأس كثير.

(٢) أي في أكثر من مناسبة.



طاعته. وأعط ما أعطيتَ هنيئاً) دون من ولا احتقار ولا ندم وبرحابة صدر. وأما إذا كانت طلباتهم في غير محلها أو لا تستطيع تحقيقها (وامنع في إجمالٍ وإعذار)^(١) بأن تذكر لهم الأسباب وتعتذر إليهم.

أما الأمويون - بسياساتهم وتعاليمهم وعن طريق أبوابهم الدينية والإعلامية - فقد مسخوا هذه الصورة، ومسّخوا الشخصية الإسلامية، فصار الناس مستجدين للعطاء من السلطة، وصار المسؤولون أولياء النعمة عليهم، والمالكون الحقيقيون لها - في نظر الناس - دون الله عزَّ وجلَّ.

صورة يلخصها المروي عن النبي ﷺ والذي صحَّحه الألباني في موسوعته «السلسلة الصحيحة»: (إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، اتَّخذوا دينَ الله دخلاً، وعبادَ الله خولاً، ومالَ الله عزَّ وجلَّ دُولاً)^(٢). وفعلاً نجح الأمويون في تحقيق ذلك.

ويُنقل في كتب التاريخ والتراث أن الشاعر جرير حاول

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

(٢) الألباني: السلسلة الصحيحة، ج ٢، ص ٣٧٩، ح ٧٤٤.

الدخول على الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز حين وُلِّيَ
على عهد الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأوقف بعيداً، فأنشد
بصوت عال:

إِنَّ الَّذِي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

جَعَلَ الْخِلَافَةَ فِي الْإِمَامِ الْعَادِلِ

وَسِعَ الْخَلَائِقَ عَدْلُهُ وَوَفَاؤُهُ

حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيْلَ الْمَائِلِ

إِنِّي لَأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلًا

وَالنَّفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

فلما مَثَلَ بين يديه قال له عمر: (ويحك يا جرير! اتَّقِ
الله، وَلَا تَقُولَنَّ إِلَّا حَقًّا). فأنشأ جرير يقول شعراً في ذكر
الأرامل واليتامى من قومه، ومما قاله:

إِنَّا لَنَرْجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنَا

مِنَ الْخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ

إِنَّ الْخِلَافَةَ جَاءَتْهُ عَلَى قَدَرٍ

كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ



هَذِي الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَهَا

فَمَنْ لِحَاجَةِ هَذَا الْأَرْمَلِ الذَّكْرِ

وحيث لم يكن عمر بن عبد العزيز كسابقه، بكى، ثم قال: (يا ابن الخطفي^(١))، أَمِنْ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ أَنْتَ فَنَعْرِفُ لَكَ حَقَّهُمْ؟ أَمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَيَجِبُ لَكَ مَا يَجِبُ لَهُمْ؟ أَمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَنَأْمُرُ صَاحِبَ صَدَقَاتِ قَوْمِكَ فَيَصْلُكَ بِمِثْلِ مَا يَصِلُ بِهِ قَوْمَكَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أنا بواحدٍ من هؤلاء، وإِنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قَوْمِي مَالاً، وَأَحْسَنِهِمْ حَالاً، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ مَا عَوَّدْتَنِيهِ الْخُلَفَاءُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ كِسْوَةِ وَحْمَلَانٍ. فقال له عمر: كُلُّ أَمْرٍ يُلْقَى فِعْلُهُ، وَأَمَّا أَنَا فَمَا أَرَى لَكَ فِي مَالِ اللَّهِ حَقًّا، وَلَكِنْ أَنْتَظِرْ يَخْرُجُ عَطَائِي فَأَنْظُرْ مَا يَكْفِي عِيَالِي سَنَةً مِنْهُ، فَأُدْخِرْهُ لَهُمْ، ثُمَّ إِنْ فَضَلَ فَضْلُ صَرْفِنَاهُ إِلَيْكَ^(٢).

هذا النموذج من الشخصية الإسلامية الممسوخة قاومه

(١) لقب جدّ الشاعر جرير وكان شاعراً معروفاً.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ٨، ص ٥١-٥٢.



الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في أدعيته، فقال فيما قال في دعائه في «الأضحى والجمعة» وهما من الأعياد ويتوقع فيهما العطايا من المسؤولين: (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ تَعَمَّدْتُ بِحَاجَتِي، وَبِكَ أَنْزَلْتُ الْيَوْمَ فَقْرِي وَفَاقَتِي وَمَسْكَنَتِي... وَتَوَلَّ قَضَاءَ كُلِّ حَاجَةٍ هِيَ لِي، بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهَا، وَتَيْسِيرِ ذَلِكَ عَلَيْكَ، وَبِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَغِنَاكَ عَنِّي. فَإِنِّي لَمْ أَصِبْ خَيْرًا قَطُّ إِلَّا مِنْكَ، وَلَمْ يَصْرَفْ عَنِّي سُوءٌ قَطُّ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَلَا أَرْجُو لِأَمْرِ آخِرَتِي وَدُنْيَايَ سِوَاكَ. اللَّهُمَّ مَنْ تَهَيَّأَ، وَتَعَبَّأَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ، لَوْفَادَةٍ إِلَى مَخْلُوقٍ رَجَاءَ رِفْدِهِ وَنَوَافِلِهِ، وَطَلَبَ نَيْلَهُ وَجَائِزَتَهُ، فَإِلَيْكَ يَا مَوْلَايَ كَانَتْ الْيَوْمَ تَهَيَّئَتِي وَتَعَبَّنَتِي، وَأَعْدَادِي وَاسْتَعْدَادِي، رَجَاءَ عَفْوِكَ وَرِفْدِكَ، وَطَلَبِ نَيْلِكَ وَجَائِزَتِكَ) ^(١).

• المثال الثالث:

ومن أمثلة مواجهة الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ للأمويين – سياسياً – من خلال الدعاء، طعنًا في شرعية حكمهم، وتوجيهًا للتمسك بأصحاب الحق الشرعيين، ما جاء في

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٨.



دعائه في «الأضحى والجمعة»، وهما من الأيام التي كان يُخَطَّب فيها في الناس، ويوجَّه فيها الخطباء اللعن لأمير المؤمنين علي عليه السلام ويروِّجون عن طريقها لآل أمية.

لذا قال ضمن دعائه: (اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَخُلَفَاؤُكَ وَأَصْفِيَاؤُكَ وَمَوَاضِعُ أَمَنَاتِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي اخْتَصَصْتَهُمْ بِهَا، قَدْ ابْتَزَوْهَا وَأَنْتَ الْمُقَدَّرُ لِدَلِّكَ، لَا يُغَالِبُ أَمْرُكَ، وَلَا يُجَاوِزُ الْمُحْتَوَمُ مِنْ تَدْبِيرِكَ، كَيْفَ شِئْتَ وَأَنْتَ شِئْتَ، وَلَمَّا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، غَيْرُ مُتَّهَمٍ عَلَى خَلْقِكَ، وَلَا لِإِرَادَتِكَ، حَتَّى عَادَ صَفَوَتُكَ وَخُلَفَاؤُكَ مَغْلُوبِينَ مَقْهُورِينَ مُبْتَزِينَ) والمسألة ليست مسألة حكم ورغبة في سلطة، بل (يَرُونَ حُكْمَكَ مُبَدَّلًا، وَكِتَابَكَ مُنْبُذًا، وَفَرَائضَكَ مُحَرَّفَةً عَنْ جِهَاتٍ أَشْرَاعِكَ، وَسُنَنَ نَبِيِّكَ مَتْرُوكَةً) ^(١).

وقال في دعاء «يوم عرفة» بعد الصلوات على النبي وآله بأنواع الصلوات، وممدح أهل البيت بأنواع المدائح: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيْدَتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ

إِلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ
بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَالْإِثْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَالْأَيْتِقَادِ مُتَقَدِّمٍ، وَلَا
يَتَأَخَّرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ،
وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ^(١).

وبعد أن يدعو لهذا الإمام بشتى الدعوات – بعنوان
أنه صاحب الحق الشرعي في القيادة الدينية والروحية
والسياسية – يدعو لاتباعه تأكيداً على أهمية مولاته: (اللَّهُمَّ
وَصَلِّ عَلَى أَوْلِيَائِهِمُ الْمُعْتَرِفِينَ بِمَقَامِهِمْ، الْمُتَّبِعِينَ
مَنْهَجَهُمْ، الْمُقْتَفِينَ آثَارَهُمْ، الْمُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَتِهِمْ،
الْمُتَمَسِّكِينَ بِوَلَايَتِهِمْ، الْمُؤْتَمِنِينَ بِإِمَامَتِهِمْ، الْمُسْلِمِينَ
لَأَمْرِهِمُ الْمُجْتَهِدِينَ فِي طَاعَتِهِمْ، الْمُنتَظِرِينَ أَيَّامَهُمْ،
الْمَادِّينَ إِلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ، الصَّلَوَاتِ الْمُبَارَكَاتِ الزَّكَايَاتِ
النَّامِيَّاتِ الْغَادِيَّاتِ، الرَّائِمَاتِ. وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَرْوَاحِهِمْ،
وَاجْمَعْ عَلَى التَّقْوَى أَمْرَهُمْ، وَأَصْلِحْ لَهُمْ شُؤْنَهُمْ، وَتُبْ
عَلَيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَخَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَاجْعَلْنَا
مَعَهُمْ فِي دَارِ السَّلَامِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ^(٢)).

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.



• بحر زاخر:

هذه أمثلة بسيطة من البحر الزاخر للصحيفة السجادية في مواجهة الباطل الفكري والسلوكي والقيمي والسياسي، حيث وظف الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام من خلاله الدعاء - بكل روحانيّته ومعانيه المرتبطة بالسماء وبالأخرة - لمواجهة البدع الفكرية والسلوكية والسياسية التي انتشرت بقوة في زمانه، كصورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليقدم لنا من خلال صفاء الروح وروحانية الكلمة: طهارة الفكرة في الإسلام، وقيمة العمل الصالح في الحياة، وسلام المبدأ والغاية في العمل السياسي.



